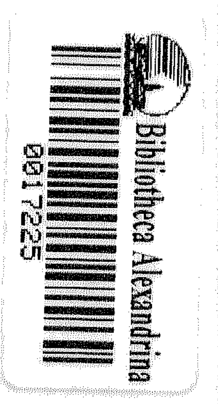
من معارك المسلمين في رمضان





تأليف الدكتور :

عبد العزيز بن راشد العبيدي

مكتبة العبيكان



من معارك المسلمين في رمضان

تأليف الدكتور: عبد العزيز بن راشد العبيدي

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

٩٥٣
٤٧٨ع
العبيدي، عبد العزيز بن راشد
من معارك المسلمين في رمضان / عبد العزيز بن راشد العبيدي. ـ ط١. ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
... ص؛ سم.
ردمك ٣ ـ ٥٢ . ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠
١ ـ الفتوحات الإسلامية. ٢ ـ المعارك الإسلامية.
أ ـ العنوان.

ردمك ٣ ـ ٥٢ . ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع ١٠٩٩ / ١٤

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ/١٩٩٤م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله الذي نصر عباده المؤمنين، ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها، وأظهره على الدين كلِّه في العالمين، وتكفَّل بالعزِّ والتمكين لمن سار على نهجه وصراطه الحق المبين، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرف الخلق أجمعين، محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع خطاه إلى يوم الدين.. أما بعد:

فهذه عدد من المعارك الإسلامية المجيدة التي خاضها المسلمون في شهر رمضان المبارك على مدار التاريخ الإسلامي، وقد جُمعت في الأصل وأذيعت في برنامج رمضاني من إذاعة القرآن الكريم من الرياض في عام ثلاثة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة، وأشار علي عدد من الإخوة الكرام بإخراجها في كتاب تعميمًا للفائدة. وها هي تخرج اليوم عسى الله أن ينفع بها ويجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع مجيب.

د. عبد العزيز بن راشد العبيدي

الرياض، الأول من رجب عام ١٤١٤هـ



دوافع الجهاد الإسلامي

تحدثنا في هذا الكتاب عن عدد من المعارك والفتوح الإسلامية التي وقعت في شهر رمضان الكريم، ولا شك أن ما وقع في غير هذا الشهر يجلُ عن الحصر، فما الذي يدفع المسلمين لهذه الحروب والمعارك، وما الذي أخرجهم من جزيرتهم لتنتشر جيوشهم شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، فوصلت الصين شرقًا كما وصلت المحيط الأطلسي غربًا، ووصلت باريس وفيينا وبلغراد شمالاً كما انتهت إلى خط الاستواء جنوبًا؟.

هل هو المغنم والفيء؟ أم هو إجبار الناس على اعتناق الإسلام وقَهْرِهم؟

لقد قال بالأول أناسٌ، كما أورد الثاني آخرون، ولكنها إجابا ت من لا يعرف الإسلام وأهله، أو من يعاديه ويعادي أتباعه.

ولذا نجد هذه الإجابات في كتب المستشرقين وأتباعهم وتلامذتهم من أبناء المسلمين المستغربين ولا شك أنها اتهامات جوفاء، أكل عليها الزمانُ وشربَ، ولاكتها الألسن حتى مجَّتها، واتجهت العقول السليمة، للبحث عن إجابات مغنية تشفي وتتفق مع طبيعة الفتوح الإسلامية.

إن من البدهي أنَّ من يبحث عن الغنيمة والسَّلب لا يعمِّر ولا ينهض بالبلاد التي تتعرض لغاراته، ولكننا في الفتوح الإسلامية نجد التعميرَ الحضاريَّ بعد كل فتح، ونجد الازدهار يعمُّ كلَّ منطقة يطأها المسلمون، ونجد النقلة الحضارية لأهل تلك المناطق.

لقد حُرِّرت طبقات في المجتمعات المفتوحة من رق فرضته السلطات الحاكمة عليها قبل الإسلام، بل إنَّ من الحكام من اعتبر شعبه كله أرقاء وعبيدًا له ونصَّ على ذلك في دستوره وقوانينه، فجاء الإسلام ليحرر الجميع.

ولقد انتقل الإسلام بقبائل وشعوب من حياة البهائم والعري والسلب والنهب إلى الحضارة والمدنية، وتحول أبناء تلك القبائل إلى حكام وقادة وعلماء

ومصلحين، فأين السلب والنهب من تلك الفتوح وهذه نتائجها؟

ثم إننا نجد كثيرًا من أبناء المِلَلِ والنِّحَل الكافرة، يعيشون ضمن المجتمع الإسلامي في كثير من المناطق التي فتحها المسلمون، أليس الأقباط في مصر منذ فُتحتْ وإلى عصرنا هذا لم يُجبر أحدٌ منهم على الإسلام، بل إن اليهود عاشوا ولازال بعضهم في بلاد المسلمين في أهنأ حال. وكذلك الهنود وكثير من الفرق الأخرى.

لقد تمتعت هذه الجماعات في الدولة الإسلامية بحرية لم تذقها من قبل، وشاركت في الدولة الإسلامية، فكان منهم الكتبةُ والمترجمون والمحاسبون وربما وصلوا إلى الوزارة.

فأين الإكراهُ والقهرُ من تلك الفتوحِ وهذه ثمارُها؟

ولا يبقى بعد هذا كلِّه إلا الحقيقةُ التي تنطق بها الأحداث، ولا يأباها إلا ذو عقل سقيم أو فكر مشبوه يهدف للدسِّ والتزوير وتزييف الحقائق لخدمة هذه الأغراض.

إنها حقيقة الجهاد الإسلامي وبواعثه وأهدافُه: وهي إيصال دين الله للعالم أجمع وتبليغُه لكلِّ الناس، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وهذا لا يتحقق إلا بإزالة العوائق التي تحول بين الناس وهذا الدين، والمتمثلة في أولئك الطواغيتِ الذين يتحكمون في عباد الله، ويمنعون دعاة الله من الوصول إليهم.

لقد كان الدعاة دائمًا يَسْبِقُون الجيوش ليعرضوا دعوة الإسلام على أولئك الحكام ويخيِّرونهم بين الإسلام أو الجزية وإلا قاتلوهم.

والإسلام ليس عقيدة فقط بل هو منهج ونظام وتصور عام لكل جوانب الحياة، ولذا فلا يكفي إبلاغُه للناس بوسيلة البيان فقط، بل لا بدَّ من إزالة كلِّ العقبات من طريقه، ليخاطِبَ وجدان الأفراد وعقولَهم دون حواجزَ أو موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي أو أوضاع الناس الاجتماعية.

إن من حقِّ الإسلام أن يتحرك ابتداءً للجهاد؛ لأنـه ليس خاصا بقوم أو وطن معين، ولكنه منهج رباني، ونظـام عالمي، ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضـاع التي تقيِّد الإنسان وتحدُّ من حريتـه في الاختيار. وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتنـاقه، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة المفسدة للفطـرة، المقيدة لحرية الاختيار. وعلى هذا فلا صحة أيضًا لمن جعل سبب الفتوح الإسلاميـة هو الدفاع عن النفس بعد ما هوجِمَت الدولة الإسلامية؛ لأننـا بهذا المفهوم الانهزامي نُقَيّد انتشار هذا الدين، فهب أن الدولـة الإسلامية لم تُهاجَم ولم يعتـد عليها أحد، هل يتقـوقع المسلمون بـدينهم في جـزيـرتهم، أو في المدينـة فقط، إنـه مفهـوم خـاطئ، تبنـاه بعض المسلمين، في محاولـة للـردِّ على المستشرقين وحملاتهم المسعـورة ضد الجهـاد الإسـلامي، فانطلقـوا في حيـاء ساذج يلتمسـون أسبـابًا مـاديـة لحركة الفتـوح الإسلامية، ووجـدوها في الدفاع عن الوطن الإسلامي، ولم يعـرفوا أنهم بهذا قد جعلوا المنهج والعقيـدة أقلَّ من الوطن والأرض، وهذه نظرة غـريبة على التفكير والحسِّ الإسلامي؛ لأن العقيدة والمنهج هما الاعتباران الوحيدان في الإسلام، أما الأرض كأرض، فـلا قيمـة لها ولا وزنَ، وإنما قيمتهـا مستمـدة في التصـور الإسـلامي من سيـادة منهج الله سبحانـه وتعـالى وسلطـانه فيهـا، وبهذا تكـون مَحْضَنَ العقيدة، وحقل المنهج، ودار الإسلام.

يقول سيد قطب رحمه الله :

«يجب ألا تَخْدَعَنـا حملات المستشرقين على مبـدأ الجهـاد فنـروحُ نبحث عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين في ملابسات دفاعية وقتية».

«إن الغربيين جرت عادتهم على أن يعبروا عن كلمـة الجهاد بالحربِ المقدسة إذا ترجموها إلى لغـاتهم، وقد فسَّروها تفسيرًا منكرًا وتفننـوا فيها، فأصبحت كلمة الجهاد عندهم عبـارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الـدماء، ورَبَّوا

أجيالهم على هذا المفهوم للجهاد، حتى أصبح الفردُ منهم كلما قرعت أذنه كلمة الجهاد تخيل مواكبا، من الهمج المحتشدة، مُصْلَتَةَ السيوف همُّها الفتك والنهب تنـادي بأصواتها «الله أكبر» إذا رأت كـافرًا أخـذت بتلابيبـه وخيَّرته بين أمـرين: الإسلام أو القتل».

إنها صورة مشوهة يجب أن نزيلها، وألا تعيقنا عن الجهاد، فلدينا من الآيات الكريمات ما يدحضُ هذا ويزيله.

قال الله تعالى: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الـدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلـب فسوف نؤتيـه أجرًا عظيمًا**﴾ الآية ٧٤ من سورة النساء.

وقال تعالى: ﴿**قل للذين كفـروا إن ينتهوا يغفـر لهم ما قـد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين، وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾ الآيات ٣٨، ٣٩ من سورة الأنفال.

وقال تعالى: ﴿**قاتلوا الذيـن لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخـر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يـدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتـاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ الآية ٢٩ من سورة التوبة.

المصادر والمراجع:

- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد جـ٣ ص ٧٠ وما بعدها تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط

- سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير سور الأنفال.

سرية(*) حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه رمضان في الشهر السابع من الهجرة

بعد أن استقر رسول الله ﷺ في دار الهجرة ووضع ركائز الدولة الإسلامية الناشئة ببناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وعقد العهود مع اليهود، بدأ يناوشُ كفار قريش ويعترضُ قوافلهم التجارية للتضييق عليهم، وقد كان المسلمون متعطشين للجهاد بعد أن أذن الله لهم فيه ردًا على ما فعله بهم المشركون، حيث أخرجوهم من ديارهم وأخذوا أموالهم وحالوا بينهم وبين دعوة الناس للإسلام، ومنعوا من أراد الهجرة أو الإسلام أن يتجه للمدينة. وكانت هذه السرية التي نحن بصدد الحديث عنها أول سرية يبعثها رسول الله ﷺ في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مُهَاجَرِه ﷺ وكان هدفُها اعتراضُ قافلة لقريش وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل.

كان قائد هذه السرية هو حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان لواؤها أول لواء يدفعه ﷺ، تسلمه حمزة رضي الله عنه من رسول الله، وحمله أبو مرثد كنَّازُ بن الحصين الغَنَوي، وكان هذا اللواء أبيضًا، وسارت السرية المؤلفة من ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين ليس معهم من الأنصار أحدٌ، واتجهت نحو الساحل وعند العِيصِ (1) التقوا بالمشركين واصطفوا للقتال وكادت المعركة أن تبدأ لولا تدخل مجديُّ بن عمرو الجُهني وكان حليفا للفريقين فحجز بينهم ولم يقتتلوا، وعاد المسلمون إلى المدينة، وعلى الرغم من عدم اقتتالهم إلا أنَّ هذه السرية أدخلت في قلوب المشركين الذعر والخوف، وأدركوا أن رسول الله ﷺ قد تحول وأصحابه من الضعف إلى القوة، وأنهم أصبحوا أندادًا

(*) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية.

(1) العيص ـ بالكسر ـ مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

لقريش والمشركين عامة، يستطيعون أن يعترضوهم وينالوا منهم ويهددوا تجارتهم. ووضع الرسول ﷺ بهذه السرية وما بعدها من الغزوات والسرايا نظامًا عسكريًا إسلاميًا متكاملاً حيث شرع مبدأ التضييق الاقتصادي واعتراض قوافل الأعداء ما داموا في حالة حرب مع المسلمين.

وكان دفع اللواء إلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه إكرامًا له حيث انطلق به في أول سرية للمسلمين، وكان رضي الله عنه شابًا كله حماسة وشجاعة وحب للجهاد ونصرة الدين، بل إنّ إسلامه كان إعزازًا للدين وتقوية للمسلمين حيث إنه قد رأى ما ينال الرسول ﷺ، من أذى المشركين وبخاصة أبو جهل، فدخل المسجد مُغْضَبًا وضرب رأس أبي جهل بالقوس ضربةً أوضحت في رأسه، وأسلم وأعلن إسلامه فعزَّ به رسول الله ﷺ ثم هاجر فجاهد مع المسلمين واشترك في بدرٍ، وكان معلمًا بريشة نعام، وأبلى بلاءً حسنًا حتى أن أمية بن خلف سأل عنه فقال: من الرجل المُعلَّمُ في صدره بريشة نعام؟ فقالوا له: ذلك حمزة فقال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، وصدق هذا المشرك فقد قتل منهم حمزة عددًا كبيرًا.

وفي غزوة أحد انطلق حمزة رضي الله عنه يقاتل عن رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسد الله ويقبل ويدبر حتى عثر عثرة ووقع على ظهره وبَصُرَ به وحشي، وكان يتصيدُه فزرقه بحربة أصابته فاستشهد رضي الله عنه وأرضاه.

ونتيجة لمواقفه البطولية في سبيل الله فقد كانت هندُ بنت عُتبة قد نذرت إن قدرت على حمزة لتأكلنَّ من كبده؛ لأنه قتل والدها يوم بدر، فلما استشهد - رضي الله - عنه مثّلوا به وبقروا بطنه وجاءوا بحزّة من كبده؛ فأخذتها تمضغها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئًا أبدًا».

وعلم الرسول ﷺ بمقتل عمه، ورآه على هذه الصورة فحزن لذلك حزنًا شديدًا وأقسم ليأخذن بثأره وليمثلنَّ بسبعين مشركًا، إلا أن الله سبحانه وتعالى

نهاهُ عن المُثْلة، فامتثل أمر ربه، وقال حين رآه: رحمة الله عليك فإنك كنت ما عَلِمتُ وصولاً للرحم فعولاً للخيرات ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى وجيء بجسد حمزة وقد مزقته السيوف وقطعته الرماح، ولم يجد المسلمون ما يكفنونه به حيث كان معه نمرةٌ إن وضعت على رأسه بدت رجلاه وإن وضعت على رجليه ظهر رأسه، وصلى عليه الرسول ﷺ ودُفن بجوار أحد، ووقف رسول الله ﷺ بين ظَهْرَانيِّ القتلى فقال: أنا شهيدٌ على هؤلاء، لفُوهم في دمائهم فإنه ليس من جريح يجرح في الله إلا جاء جرحُهُ يوم القيامة يدْمي، لونه لون الدم وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآنا فاجعلوه في اللحد.

ونزل في شهداء أحد قوله تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾ الآية ١٦٩، آل عمران.

رضي الله عن أسد الله حمزة بن عبد المطلب قائد أول سرية في سبيل الله في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

معركة بدر
السنة الثانية من الهجرة

حديثُنا سيكـون عن معركة هي أعظمُ المعارك في تـاريخ الإسلام، كيف لا ؟ وقد سماها القرآن الكـريمُ «يوم الفـرقان» وقـادها : خير البريـة رسول الله ﷺ، وكان جُندها : المسلمون، أفضل أمته من المهاجرين والأنصار .

في ذلك اليوم التقى الحق بالباطِل والتوحيـدُ بالشركِ، والإسلام بالوثنية، وفي ذلك اليوم حُطمت القوانين المادية فَغَلَبتِ القلة الكثرة، واستبان للمسلمينَ على مرِّ التـاريخ أن النصر مع العقيـدة وليس مع الكثـرة، وفي ذلك اليـوم العظيم نزلت جندُ الله التي يـؤيدُ بها عباده الصالحين، وتقَطَّعت كلُّ العلائق الـدنيوية فقاتل الأبُ ابنَهُ والأخُ أخاه، ولم يبق إلا رباطُ العقيدة يربط بين المسلمين، وباعَ كثير من المسلمين روحَه لله تعالى ليقبض الثمن العظيم، نصر في الـدنيا وجنة في الآخرة، وحصلت أمـور عظام وأحداث جسام، قد لا يستطيـع اللسان وصفها ولا القلم بيـانها وإنما سنذكـر إن شاء الله إشـارات لعل الله أن يجعل فيها ذكـرى للقلوب وعظة وعبرة للنفوس .

حدثت غزوة بـدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانيـة للهجرة، بعد أن أذن الله سبحانه بقتال المشركين كافة .

فقـد بلغ رسـولَ الله ﷺ خبرُ عير لقـريش مقبلـة من الشـام فيهـا تجارة كثيرة صُحْبَة أبي سفيان بن حرب، فَنَـدَب الرسول ﷺ المسلمين للخروج لاعتراضها، مكتفيًـا بمن كان ظهـرُه حـاضرًا، ولم يستعد عليـه الصـلاة والسلام استعـدادًا بليغًا .

وخـرج رسـول الله مسرعًـا في ثـلاثمائةٍ وبضعـة عشر رجـلاً من المهـاجـرين والأنصار، ولم يكن معهم سـوى سبعين بعيرًا، فكان الرجلان والثـلاثة يعتقبان

البعير الواحد، وكـان رسول الله عليه الصلاة والسلام وعليُّ بن أبي طـالب ومَرْثَدُ ابن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا، فلما جـاءت عقبة رسول الله قالا نحن نمشي عنك ـ يطلبان منه أن لا ينزل من على البعير ـ فقال ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنـا بأغنى عـن الأجـر منكما» فكـان عليـه الصـلاة والســلام مثلهما يـركب ويمشي، وهكذا حالُ بقية الأصحاب رضوان الله عليهم.

فاشترك أبـو بكر وعمر وعبد الـرحمن بن عوف في بعير، وزيد بن حارثـة وابنه وكبشة من موالي رسول الله في بعير، والمسير بإزاء طريق القوافل إلى بدر ليس سفرًا قاصـدًا ولا نزهة لطيفة، فـالمسافة بين المدينـة وبدرٍ تربو على مـائة وستين كيلاً ومع ذلك صبر الـرسول وأصحـابـه على طول الطـريق وصعـوبته وقـد كانـوا في رمضان.

ودفع عليه الصـلاة والسلام اللواء إلى مُصعـبِ بن عمير، والراية الـواحدة إلى علي بن أبي طـالب، والأخرى التي لـلأنصـار إلى سعد بن معـاذ رضي الله عنهم أجمعين، ولما كان بـالرَّوحـاءِ على بعد أربعين ميـلاً من المدينة، رَدَّ أبـا لُبـابة بن عبـد المنـذر واستعمله على المدينـة، وسـار الجيش الإسـلاميُّ لا يبغي إلا العيرَ القادمة من الشام حتى وصلوا قرب الصفراء فأقام فيها وبعث الرسول ﷺ عيونه تتجسس أخبارها.

وعَلِمَ أبو سفيان بن حرب بمخرج رسـول الله وقصده إياه، فأرسل إلى قريش مستصرخًا بهم ليمنعوهُ من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخُ مكة فنهض المشركون مسرعين وخرجوا جميعاً لم يتخلف من أشرافهم أحـد. سوى أبي لهب فقد أخرج رجلاً مكـانه. وسـارت قريش من ديـارها كما قـال تعالى: ﴿**بطرًا ورئاء النـاس ويصدُّون عن سبيل الله**﴾ ٤٧ الأنفال، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «بِحدِّهـم وحَدِيـدِهم تُحادُّه وتُحادُّ رسولـه». وعلم الرسـول بمقدمهم كما علم بأن القـافلة المطلـوبـة غيَّرت طـريقها بعـد أن اكتشف أبـو سفيـان مـوقع المسلمين، وهنـا

استشار الرسول ﷺ أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيًا فتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم ثالثًا ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذٍ فقال: يا رسول الله كأنّك تُعرّض بنا؟ وكان إنما يعنيهم، لأنهم بايعوه على منعه من الأحمر والأسود في ديارهم، فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها أن لا ينصروك إلا في ديارها وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظْعَنْ حيثُ شئْتَ، وصِلْ حبلَ من شئت، واقطع حبل من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعْطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تَبعٌ لأمرِك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرْك من غمدان لنسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك، وقال المقداد رضي الله عنه: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هناهُنا قاعِدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك. وهنا أشرق وجهه ﷺ وسرَّه هذا القول الصادق والإيمان العظيم، وقال: «سيروا وابشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم».

والحقيقة أن صحابة رسول الله ﷺ لم يستعدوا للقتال والحرب، بل إن الرسول لم يستحث متخلفا ولم يعزم على أحد بالخروج، ولم يَدْرْ بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام، ولو علموا لاتخذوا الأهبة والاستعداد، ولئن فَتَرت الهمم بعدَ سماع نبأ إفلات أبي سفيان وقافلته فلأجل ذلك، وليس جبنًا أو خوفًا من العدو، ولذا زال هذا الفتور بعد عزم الرسول عليهم بالمسير، وانطلق الجميع خفافًا إلى غايتهم ما بين مهاجر باعَ في سبيل الله نفسه وماله وأنصاري رَبَطَ مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه وآوى أصحابه، وسار الجميع يقودهم المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى نزلوا قريبًا من بدر، وبدأ الرسول ﷺ الاستعداد للمعركة وبعث عيونَه يلتمسون الأخبار فأدركوا رجلين من

سقـاة قريش فأحضروهما، وهُم لا يعـرفـونهما ثم سألوهما من أنتما؟ قـالا: نحن سقاة لقـريش، فكرهوا ذلك وودوا لو كـانا لعير أبي سفيان، وكان الـرسول ﷺ قائمًا يصلي فلما سلَّـم سألهما عن قريش وعـددها، ومن خـرج معها، فلما أعلماه قال ﷺ لأصحـابه: هـذه مكة قـد ألقتْ إليكم أفلاذ كَبِـدِها، وهكـذا حانت ساعـة اللقاء، وتأهب المسلمون للقتال، فنـزلوا على أدنى ماء من بـدر، ثم قال الرسول ﷺ: أشيروا عليَّ في المنـزل، وهنا تقدم الحباب بن المنـذر فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلَكَه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحربُ والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحربُ والمكيدة! مُنتهى الأدب من هذا الصحابي الجليل، خشي إن هـو أبـدى رأيـه قبل السـؤال أن يكـون معترضًـا على أمـر الله لرسولـه، وهكذا كل الصحابة رضـوان الله عليهم لا يخاطبون قائدهـم إلا بأدب جم حتى لو طلب منهم المشورة، وبعد أن اطمأن الحباب أن الأمر متروك للرأي أبدى رأيه فأشار بتغيير المنزل والنزول عند آخـر بئر تجاه العدو وتغوير الآبار التي وراءه وبنـاء حـوض يُملأ بـالماء ليشرب المسلمـون ولا يشرب المشركـون، ووافق المصطفى عليه الصلاة والسلام ولم يجئ نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب وامتلكوا مواقع الماء.

وقضى المسلمـون ليلاً هـادئ الأنفاس، منير الآفـاق، غمرت الثقـة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم، وتساقط عليهم مطر خفيف طهرهـم وأذهب الله به عنهم رجس الشيطـان ووطأ بـه الأرض، وصلَّب الرمل، فجعـل حركتهم عليـه ميسرة، قال تعالى: **﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منـه وينزل عليكم من السماء ماءً ليُطهِّـركم به، ويـذهـب عنكم رجـز الشيطان، وليربـط على قلوبكم ويثبت بـه الأقدام﴾**[١١] الأنفال.

وبنى الصحابة لرسول الله عريشًا يكونُ فيه على تل يشرف على المعركة، وكان ﷺ يتفقد الرجـال وينظم الصفوف ويسدي النصائح ويذكِّر بـالله والدار الآخرة

ثم يعود إلى عـريشه فيستغـرق في الصلاة والـدعاء الخاشع، ووقف أبـو بكر إلى جوار الرسـول وهو يكثر الابتهال والتضرع ويقول فيما يدعـو به: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني انشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسـلام لا تعبدُ في الأرض» فمازال يهتف بـربه، مـادًّا يديه مستقبـل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيـه فأتـاه أبـو بكر فـأخذ رداءَه فألقـاه على منكبيـه ثـم التـزمه من ورائه وقـال: يا نبي الله كفـاك منـاشدتك ربَّك فإنـه سينجز لك مـا وعدك.

وهكـذا ظـل رسـول الله ﷺ في دعـاء وتضرع لله لا ينقطع، وظـل المسلمـون كـذلك يستنصرون الله ويستغيثونـه في تـذلل وإخـلاص، فاستجـاب لهم ربهم وأوحى إلى ملائكته ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكـة أني معكم فثبتوا الـذين آمنوا، سألقي في قلـوب الذين كفروا الـرعب**﴾ [١٢] الأنفـال، وأوحى الله إلى رسولـه ﴿**أني ممدكم بألف من الملائكـة مردفين**﴾ [٩] الأنفال، وخرج ﷺ إلى أصحـابه وهو يقـول: «سيهزم الجمع ويولون الـدبر» وسار إلى موضع المعـركة وجعل يشير بيده الشريفة، هذا مصرع فلان، وهـذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله فما تعدى أحد منهم موضع إشارته عليه الصلاة السلام.

هذه حالة المعسكر الإسلامي تلك الليلة.. صلاة وعبادة ودعاء وتضرع.

ولنتجه إلى المعسكر الآخر.. معسكر الشرك والكفـر لنعرف كيف حاله، لقد وصلت للمشركين الرسل من أبي سفيـان تخبرهم بسلامة القافلـة وتعرضُ عليهم الرجوع فقد انتهى سبب الخروج، وكادت قريش أن تعود لولا أن قام رأس الكفر أبو جهل وأصرَّ على المسير وقال: والله لا نـرجعُ حتى نردَ بدرًا فنقيم عليـه ثلاثًا فَنَنْحـر الجزورَ ونُطعَمَ الطعـام ونُسقَى الخمـرَ وتعزف علينـا القيـان وتسمع بنـا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا.

منتهى البطـر والمراءاة والصـد عن سبيـل الله تتجلى كلهـا في قـولـة أبي جهل

هذه، وعـاقبة هذا شنيعـة ووخيمة، ولذا قال أبـو سفيان بعد مـا علم بذلك: «واقوماه! هذا عمل عمرو بن هشام «يعنـي أبا جهل» كره أن يرجع؛ لأنه ترأس على الناس فبغى والبغي منقصـة وشؤم، إن أصـاب محمدٌ النفير ذللنـا» وصحة فراسة أبي سفيان كما سنرى.

وشجع عدو الله إبليس قريشًا على الخروج ودفعهـم إليه دفعًا حيث أتاهم في صورة شريف من أشراف العرب وقال لهم: لا غـالب لكم اليوم من الناس وإني جـارٌ لكم، لكنـه حينما رأى مددَ السماء ينـزلُ في الأرض فـرَّ ونكص على عقبيـه وقـال لهم: إني أرى ما لا تـرون، وصـدق الكـذوبُ فقد رأى مـلائكـة الله وهـم يؤيدون المسلمين ويقتلون المشركين.

وتحرك المنافقون والذين في قلوبهم مرض ليخذلوا المسلمين فاستقلوهم وأيقنوا بعقولهم المريضـة أن النصر للكثرة الكافـرة على القلة المؤمنة وقـالوا: ﴿**غرَّ هؤلاء دينهم**﴾ [٤٩] الأنفال ولم يدركوا أن النصر إنما يكون بالتوكل عليه لا بالكثرة ولا بالعدد.

واستفتح أبـو جهلٍ في ذلك اليوم وقـال: اللهم أقطعنا للـرحم، وآتانـا بما لا نعرفه فأحِنْـهُ الغداة، اللهم أيُّنا كان أحب إليك، وأرضى عنـدك فانصره اليوم، فأنزل الله تعالى: ﴿**إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح. الآية**﴾ [١٩] الأنفال.

واستعدت جموع المشركين للمعركة وعزموا على القتال وكان عددهم كبيرًا ينيف على تسعمائة مقاتل ومعهم مـائتا فرس، أي أنهم أكثر من ثلاثـة أضعاف جيش المسلمين، ولكن الله عز وجل أراهم لرسوله قليلاً لا قوة لهم ولا وزنا ولا أثر رغم كثرتهم، فأعلم رسـول الله ﷺ أصحابه بذلك فـاستبشروا وتشجعوا على خوض المعـركـة، ودخلت الطمأنينـة قلـوبهم، وقد تكـررت هـذه الـرؤيـة حين التقى الجمعـان، فقد رأى كلُّ فـريق أن خصمـه قليل، فـالمسلمون يـرون أعـداءهم قليلا، لأنهم يرونهم بعين الحقيقة والواقع، والمشركون يرونهم قليلاً بعين الظاهر،

ليتحقق بذلك التدبيرُ الإلهي ويلتقي الجمعان ويقضي الله أمرًا كان مفعولا. وقام رسول الله ﷺ في جند الإسلام يعظِهم ويذكرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر والظفر وثواب الله الآجل، وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله، فقام عمرو بن الحمام فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال نعم، قال بخ بخ يا رسول الله وكان في يده تمرات يأكلهن، فرماهنَّ وقال: ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، وقد قاتل رضي الله عنه حتى قتل، وهذا هو المحرك والدافع.. إنه العقيدة الصادقة والإيمان الذي لا يتزعزع بموعود الله لأوليائه وشتان بين من يقاتل لهدف أخروي سام، وبين من يقاتل لأجل الدنيا وزخارفها. إن الأول يقاتل ليموت ويحصل على ثوابه وأجره، والآخر يقاتل ليحيا ويتمتع بدنياه التي قاتل لها ومن أجلها، ولذا لا يثبت من هدفه دنيوي إذا عاين الموت حتى لا يفوته هدفه.

ووقف رسول الله عليه الصلاة والسلام أمام العدو وأخذ ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوههم فلم تترك رجلاً إلا ملأت عينيه وشغلوا بالتراب في أعينهم، وقال لهم ﷺ شاهت الوجوه، وأمر أصحابه فقال: شدوا، وذلك في يوم السابع عشر من رمضان المبارك.

وابتدأت المعركة بالمبارزة فخرج عُتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة يطلبون المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا لهم: من أنتم؟ فقالوا: من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام، وإنما نريد بني عمِّنا، فبرز إليهم علي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليهم فقتل علي قِرنة الوليد، وقتل حمزة قِرنه عتبة، وقيل شيبة، واختلف عبيدة وقرنه ضربتين، فكرَّ حمزة وعلي على قرن عبيدة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله فلم يزل جريحًا حتى مات بعد ذلك رضي الله عنه.

وكان علي رضي الله عنه يقسم بالله لَنَزَلَتْ هذه الآية فيهم: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربهم**﴾ الآية [١٩] الحج كما يروي ذلك البخاري وغيره.

واستشاط الكفار غضبًا للبداية السيئة التي صادفتهم، فأمطروا المسلمين وابلاً من سهامهم ثم حمي الوطيس فأمر الرسول أصحابه أن يردوا هجمات المشركين من مواقعهم وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، وهكذا استنفد المسلمون جهد أعدائهم، وألحقوا بهم خسائر جسيمة، ثم التحم الجيشان واستبسل جند الرحمن أمام عدو يفوقهم عددًا وعدة.

روى البخاري ومسلم وغيرهما أن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفَتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتَيَان حديثا السن، فكأني لم آمنْ بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه، يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونَه، وقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، قال عبد الرحمن: فما سرني أنني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه، وهما ابنا عفراء رضي الله عنهم أجمعين، وقد استشهدا بعد أن حققا هذه الأمنية في سبيل الله. وهكذا تكون همم الشباب المسلم وهكذا تكون عزائمهم، إنهما قدوة ومثل صالح لشباب المسلمين كافة فأين المقتدون؟

ولنستطرد في ذكر صور البطولة والشجاعة والإقدام وصور الإيمان الصادق العظيم فوالله إنها أخبار لا تُمَلُّ ولا تبلى بكثرة السماع وتكرار القراءة، إنها أخبار محمد وصحبه وهم يبنون العقيدة وينشرون الدين ويحطمون الجاهلية والشرك لتبقى نموذجا يحتذى ومثلا يقتدى ودرسًا يستذكر في كل زمان ومكان.

روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قَدْحٌ (أي سهم) يعدِّل به القوم فمر بسوَّاد بن غَزِية وهو مُسْتَفْتِلٌ من الصف (أي متقدم) فطعن في بطنه بالقدح وقال: استو يا سوَّاد، فقال يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأَقْدني (أي أقتص منك) فكشف المصطفى ﷺ عن بطنه وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبَّل بطنه فقال: ما

حملك على هذا يا سوّاد؟ قال يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله بخير.

وسأل عوف بن الحارث ـ وهو الابن الثالث لعفراء ـ رسول الله فقال: ما يُضحك الربَّ من عبده قال ﷺ: غمسُه يده في العدوِّ حاسرًا، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل رضي الله عنه.

وقاتل عُكَّاشة بن مِحْصَن يومَ بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فأعطاه جذلاً من حطب فقال: قاتل بهذه يا عكّاشة فلما أخذه من رسول الله هزّه فعاد سيفا في يده طويلَ القامة، شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وبقي عنده حتى استشهد في قتال المرتدين. ورُمي حارثة بن سراقة بسهم وهو يشربُ من الحوض فأصاب نحره فمات.

وثبت في الصحيحين عن أنس أن حارثة قتل يوم بدرٍ، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت وإلا فليرين الله ما أصنع ـ يعني من النياح ـ وكانت لم تُحرَّم بعد: فقال لها رسول الله ﷺ: ويحك أهبلتِ؟ إنها جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

وتتوالى صور البطولة الفذة، ومواقف الرجولة النادرة، تحركها العقيدة ويدفعها الإيمان في مشاهد لم تعهدها الإنسانية من قبل فهذا معاذ بن عمرو بن الجموح يضرب أبا جهل حينما رآه، وقد أطافت به صناديدُ قريش فيقطع ساقه من نصفها ثم يتلقى رضي الله عنه ضربة من عكرمة بن أبي جهل، أطاحت بيده وتعلقت بجلدة من جنبه يقول رضي الله عنه: ولقد قاتلت عامَّة يومي وإني لاسحبها خلفي (أي يده) فلما آذتني وضعتُ عليها قدمي ثم تمطَّيت بها عليها حتى طرحتُها، نعم تخلص من يده المبتورة حتى يتفرغ للقتال بيده الأخرى.

ويطولُ بنا المقام لو تتبعنا كل صور البطولة في يوم بدر العظيم، ولكنها نماذج

نعرضها لعلها تحرك في الأمة ما سكن، وتشعل ما خبئ لتعود لها العزة والمنعة ولتسير في طريق النصر المظفر إن شاء الله كما سار فيه صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام مستلهمين من هذه الغزوة العظيمة الدروس والعبر.

وانعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين وهم بين كر وفر. جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن، وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم بأن يغالبوهم، وهنا نزلت ملائكة الله لتثبيت المؤمنين وضرب المشركين، روى ابن كثير ـ رحمه الله ـ أن رسول الله ﷺ خفق خفقة في العريش ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجرٌ بعمامته آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته». وروى ابن اسحاق عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرخوها على ظهورهم، إلا جبريل فإنه كان عليه عمامة صفراء، وقال سهيل بن عمرو لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضا على خيل بُلق بين السماء والأرض معلَّمين يقتلون ويأسرون، وكان أبو أسيد رضي الله عنه يحدّث بعد أن ذهب بصره ويقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أمتري وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم.

أخرج مسلم أن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول أَقْدِم حَيْزُوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيًا، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة».

وقال أبو داود المازني: «إني لأتبع رجُلاً من المشركين لأضربه إذ وقَعَ رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري» رواه الإمام أحمد، وروى أيضا أن رجلاً من الأنصار أتى بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا فقال العباس: إن هذا

والله مـا أسرني، لقد أسرني رجـل أجلح، من أحسن النـاس وجهًا، على فـرس أبلق ما أراه في القوم، فقـال الأنصاري: أنا أسرته يـا رسول الله فقال: «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم».

ولقـد حاز مـلائكة الـرحمن على تلك المزيـة التي حازهـا صحـابة رسـول الله البدريين، فقـد روى البخاري أن جبريلاً أتـى رسول الله ﷺ فقال: مـا تعدون أهل بدرٍ فيكم؟ قـال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحـوها قـال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة.

وتظـافرت عـوامل النصر وتحققت شروطـه فأنـزله الله على جنـده ذلك اليـوم وفتحوا عيـونهم على بشاشـة الفوز تضحك لهم خـلال الأرض والسماء، إن هذا النصر العظيم ردَّ عليهم الحياة والأمل والكرامـة وخلصهم من أغلال ثقال، قال تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببـدرٍ وأنتم أذلة فاتقـوا الله لعلكم تشكرون**﴾ [١٢٣] آل عمران.

وهكذا وهت صفـوف المشركين تحت مطارق الإيمان الـزاهد في متاع الـدنيا، وانكسرت قـريش وأخـذهـا الفزع، وحـاول أبـو جهل أن يـوقف سيل الهزيمـة بصرخـاته المستميتـة، ولكن أنّى له ذلك، فـوقع صريعًا بسيـوف المسلمين، ثـم جـاءه عبد الله بن مسعـود فأخـذ يهوي عليه بسيفـه حتى خمد، ولقي مثل هـذا المصير سبعون صنـديدًا من رؤوس الكفر بمكة، دارت عليهم كـؤوس الردى، فتجـرعـوها صـاغـرين، وسقط في الأسر مثلهـم، وفـر بقيـة الجيش يـروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم، وأن البطر يجرُّ في أعقابه الخزي والعار.

واستشهد مـن المسلمين أربعة عشر رجلاً استـأثرت بهم رحمة الله فـذهبوا إلى عليين. وعندمـا رأى رسول الله ﷺ قتلى المشركين، أمر بهم فطُـرحوا في القليب، فلما كان منتصف الليل خرج إليهم وقال لهم: «يـا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا أمية بن خلف يـا أبا جهل بن هشام ـ فعدد من كان منهم في

القليب ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا» فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قومًا قد جيَّفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنَّهم لا يستطيعون أن يجيبوني» وناداهم في قليبهم: «يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس».

وأهيل التراب على رفاتهم واستراح المسلمون من شرورهم، إلا أن النبي ﷺ استعاد ماضيه في جهاد أولئك القوم، كم عالج مغاليقهم وحاول هدايتهم، وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه، وتلا عليهم آياته وقرآنه، وهم على طول التذكير يتبجحون وبالله وآياته ورسوله يستهزئون.

وأقام رسول الله وأصحابه ببدرٍ ثلاثا، يحمد الله ويشكره، ويثني عليه ويعبده ثم قفل راجعًا إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والغنائم، وأرسل بالبشرى إلى أصحابه في المدينة ووصل الخبر بالنصر العظيم.

وشُدِه العربُ قاطبة للنصر الحاسم في بدر، واستنكر أهل مكة الخبر وحسبوه هذيان مجنون، فلما استبان صدقه، صعق نفر منهم فهلك لتوه، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل.

لقد كانت معركة بدر تأييدًا ودعمًا لدولة الإسلام فقد مكنت للإسلام وأهله وجعلت سلطانهم مهيبًا في المدينة وما حولها، وسمع بهم كل العرب في جزيرتهم.

وتمخضت معركة بدرٍ عن دروس وعبر، هي للمسلمين في كل زمان ومكان كما هي لأصحاب رسول الله. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الموقعة فرقانًا بين الحق والباطل وفرقانا في خط سير التاريخ الإسلامي، ومن ثم فرقانا في خط سير التاريخ الإنساني. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعرف المسلمون على مدى التاريخ عوامل النصر والهزيمة وأنها منه عز وجل، لئلا يجعل المسلمون

للمادة أثرًا أكبر من حجمها في ذلك كلّه، ولكي يعلموا أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة، وليس بالمال والخيل والزاد، إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد، وذلك كلُّه عن تجربة واقعية، لا عن مجرد تصور واعتقاد ألا إن غزوة بدر لتمضي مثلاً في التاريخ البشري، ألا وإنها تقرر دستور النصر والهزيمة، وتكشف عن أسبابها، الحقيقية لا الظاهرية المادية، وهي بهذا كتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كلِّ زمان وفي كل مكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها، فقد خلّدها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

وإنه لجدير بالمسلمين اليوم أن يقفوا طويلاً أمام بدرٍ وقيمها الحاسمة التي تقررها، ففي تلك المعركة التقى الآباء بالأبناء والإخوة بالإخوة، وخالفت بينهم العقيدة وفصلت بينهم السيوف، وغاضب الإبن المؤمن أباه الملحد، فلا مجال للعلاقات والصلات الدنيوية إذا اختلفت العقيدة.

وفي هذه الغزوة أراد الله أن يُريَ المسلمين مدى الفرق بين ما أرادوه لأنفسهم وما أراده الله تعالى لهم بل للبشرية كلها، فقد أرادوا المتاجر والعير، وأراد الله لقاء النفير، ليرى المسلمون على مدِّ البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير، وليعلموا أن الخير دائمًا فيما اختاره الله سبحانه، فالمعركة بجملتها كما يسجل القرآن الكريم من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره له وفي سبيله عز وجل، أبلوا فيها بلاءً حسنًا فاستحقوا الأجر والثواب.

المصادر والمراجع:

١ ـ عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين.

٢ ـ ابن عبد البر النمري: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف.

٣ ـ الحافظ ابن كثير: سيرة الرسول ﷺ، من كتاب البداية والنهاية جـ ٢، ٣.

٤ ـ ابن قيم الجوزيه: زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٣ تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط.

٥ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير سورة الأنفال.

٦ ـ محمد الغزالي: فقه السيرة.

٧ ـ مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ط (١) الرياض.

فتح مكة المكرمة
السنة الثامنة من الهجرة

حديثنا سيكون عن الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة، وانتصار الحق وإزهاق الباطل، سيكون عن العودة المظفرة لمحمد وصحبه إلى بلدهم وقد أخرجوا منه قبل ثمان سنين مضت، قضاها ﷺ في جهادٍ متواصل، وتبليغ للدعوة مستمر، وقضاها كفار قريش في عناد وحرب للدعوة وصاحبها ولكل من اعتنقها وآمن بها.

لقد حُرم المسلمون ومعهم رسول الله ﷺ من زيارة بيت الله وحجه والاعتمار فيه، ووقفت قريش تمنعهم حينما أرادوا ذلك في السنة السادسة من الهجرة، ورضي الرسول عليه الصلاة والسلام بالعودة إلى المدينة بعدما عقد معهم «صلح الحديبية» وظل ﷺ حتى السنة الثامنة من الهجرة وفيًا لشروط ذلك الصلح فيما أحبَّ المسلمون وفيما كرهوا، حتى أن المشركين أقروا له بهذا الوفاء الذي لم تعهده جاهليتهم.

وفي السنة الثامنة من الهجرة نقضت قريش بنفسها ذلك العهد فأصبح بعد ذلك لاغيًا؛ لأنها ظلت جامدة على كفرها وعنادها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت الأحوال في الجزيرة العربية وتوشك أن تغيرها في العالم كله، بعدما أقبل الناس على دين الله يعتنقونه ويؤمنون به، ويدعون له ويدافعون عنه.

في ذلك العام، اعتدت قبيلة بني بكر وهم حلفاء قريش، على خزاعة وهم حلفاء المسلمين فقتلوا منهم عددا كبيرا وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغي في الحرم سرا، وعلى الرغم من أن عقلاء بني بكر حذروا زعيمهم من القتال في الحرم وقالوا له: إلهك إلهك، إلا أنه تمادىٰ وقال: لا إله لي اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون فيه أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ واستمرت المقتلة في حرم الله باشتراك رجال من قريش.

وفزعت خزاعة لما حل بها، وبعثت إلى رسول الله ﷺ وفدًا يستغيث به ويعلمه الخبر، ودخل عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله في مسجده بالمدينة وهو بين ظهراني أصحابه وقال:

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدا حِلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتم ولدًا وكنا والدا ثمتَ أسلمنا ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا أبدا وادعُ عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر، يسمو صعدا

إن سيم خسفا وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا

إنّ قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا

وهم أذل، وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا رُكَّعا وسُجَّدا

فلما سمع منه الرسول ﷺ قال له: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالمٍ، ثم عَرَضَتْ سحابة لرسول الله ﷺ فقال: إنَّ هذه السحابة لتستهِلُّ بنصر بني كعب، وأمر الناس بالجهاز وكتمهم مَخْرجه وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يَبْغَتَهُمْ في بلادهم.

وأحست قريش بفادح عملها وخطأ مسلكها مع حلفاء رسول الله ولكن بعد فوات الأوان، وخرج أبو سفيان إلى المدينة يصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد الذي أهدر حرمته، ووصل إلى المدينة فذهب إلى ابنته أمّ حبيبة وأراد الجلوس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فقالت رضي الله عنها: بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يَرُدَّ عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبي بكر ليستشفع به عند رسول الله في هذا الشأن فرفض، فتركه إلى عمر فقال

عمر: أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ والله لـو لم أجد إلاّ الذرَّ لجاهدتك به، فتركهما إلى علي فقال: ويحك يا أبا سفيان لقـد عزم رسول الله على أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه فيه. وفشلت كلُّ مسـاعي أبي سفيان وعاد إلى مكة وأمـر الرسول ﷺ وأصحابه بالمسير فاستمعوا لأمره وهم يـدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد حانت.

وسار الجيش المظفـر تكلؤه عنايـة الله، وفي الطريق إلى مكـة أرسل الصحابي الجليل حـاطبُ بن أبي بلتعة إلى قـريش يخبرهم بمقـدم جيش المسلمين، وأعلم الله نبيه بذلك، فأمـر اثنين من أصحابه أن ينطلقا إلى روضة خـاخ ليجدا ظعينة معهـا كتاب حـاطب، ولحق بها الصحـابيان الجليـلان وأخـذا منها الخطـاب، واعتذر حـاطب لرسـول الله فقبل عذره لصـدقه رضي الله عنـه، إلا أن عمر بن الخطاب قـال: دعني يا رسـول الله أضرب عنقه فإنـه قد خـان الله ورسولـه وقد نافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بـدرًا وما يدريك يا عمرُ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقـال: اعملوا مـا شئتم فقد غفرت لكم» فـاستسلم عمر لـرسول الله وذرفت عيناه رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم.

ثم مضى رسول الله ﷺ وهـو صائم والناس صيـام، حتى إذا كانوا بالكُـديد أفطر وأفطر الناس معه، ووصل الجيش الإسلامي إلى مرِّ الظهران فنزل هناك.

أمـا قريش فقـد سرى فيهـا القلق والترقب بعـد أوبة أبي سفيـان، وعمَّى الله الأخبـار عنهـا، وأسلم جمع منهم وهاجـر فلقي رسـول الله في الطـريق، ومنهم العباس بن عبد المطلب وعياله وأهلـه، كما خرج أبو سفيان بن الحارث وهو ابن عم رسول الله وعبـد الله بن أمية وهو ابـن عمته وكانـا من أشد الناس عـداوة له بمكة، وأكثـرهم له إيـذاءً فلقياه ﷺ فأعـرض عنهما، فأشار علي بن أبي طـالب رضي الله عنه على ابن عمـه أبي سفيان بأن يأتي رسول الله من وجهه وأن يقـول له كما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿**تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين**﴾ [٩١] يوسف ـ ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر**

الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ [٩٢] يوسف فأنشده أبو سفيان شعرًا ختمه بقوله :

هـــداني هــــاد غير نفسي ودلّني   على الله من طـــرَّدتـــه كل مطـــرّد

فضرب رسول الله على صدره وقال : «أنت طرَّدتني كلَّ مُطرَّد» وحسن إسلامه بعد ذلك ، ويقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه .

وفي مرِّ الظهـران انتشر جيش الإسـلام المظفر، وأمـر رسول الله عليـه الصلاة والسلام أصحـابه العشرة آلاف بإيقـاد النيران ، فأوقدت عشرة آلافِ نـار فأضاء منها الوادي ، وجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحرس ، وعَزَّ على العبـاس بن عبد المطلب أن تجتـاح مكة في قتـال يتفانى فيـه أهلها ولا يغنيهم فتيلا ، فخـرج على بغلة رسول الله البيضاء ، لعله يجد بعـض الحطَّابة أو أحدًا يخبر قريشًـا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يـدخلها عنوة ، فبينما هو يسير إذْ سمـع أبا سفيان بـن حرب وبديـل بن ورقاء وهما يتراجعـان فعرفهما العباس وأخبرهما أن هذا رسول الله ﷺ في جنـد الإسلام ، وعرض على أبي سفيان أن يركبه معه إلى رسول الله ، فسارا على بغلته البيضاء لا يعترضهما المسلمون ، وفي الصباح ، قابل رسـول الله ﷺ أبا سفيان فقال له : «ويحك يـا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلـه إلا الله؟ قـال أبـو سفيـان : بـأبي أنت وأمي مـا أحلمك وأكـرمك ، وأوصلك ، لقـد ظننت أنه لـو كـان مع الله إلـه غيره لقد أغنى شيئـا بعد ، قـال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسـول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا ، فقال لـه العباس : ويحك أسلم ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، فقـال العبـاس : يا رسول الله إن أبـا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل لـه شيئا ، قال : «نعم : من دخل دارَ أبي سفيان فهـو آمن ومن أغلق عليه بابه فهـو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن» ، وهكـذا أعطاه رسـول الله ما يُرضي فخـره بما لا يضر أحدًا ولا

يكلف جهـدًا، وتحبَّب إليـه بهذا الثمـن الميسـور، وأوصى العبـاس بـاحتجـازه بمضيق الوادي ومرت القبـائل براياتها، وكلـما مـرت قبيلـة قال أبـو سفيـان: يا عباس من هؤلاء: فأقول سُليم، فيقـول مالي ولسُليم، حتى نفذت القبائل ما تمر قبيلة إلا ويسأل عنها فإذا أخبره العباس قال: مـالي ولبني فلان، حتى مرَّ به رسـول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيهـا المهـاجـرون والأنصار لا يُـرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عبـاس من هؤلاء قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصـار: قال ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، ثم قـال: والله يا أبا الفضل لقد أصبـح مُلك ابن أخيك اليوم عظيماً قـال: قلت يا أبـا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذاً قـال قلت: النجاء إلى قومك، وعاد أبو سفيـان إلى قومه ينذرهم ويحذرهم ويدعوهم إلى التسليم.

ودخل أبـو سفيـان مكة منـذرًا ومحذرًا، وهـو يُحسُّ أن وراءه قـوة إن تحركت اجتاحـت ما أمـامها، فصرخ في قـومه قائلا: يـا معشر قريـش، هذا محمـد قد جـاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيـان فهـو آمن، فقامت إليـه هندُ بنت عتبة ومسكت به وقـالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحْمَش الساقين قُبِّحَ من طليعة قوم، فقال أبو سفيـان: ويلكم، لا تغُرنَّكم هذه من أنفسكم فإنه قد جـاءكم مـا لا قبل لكم بـه، من دخل دار أبي سفيـان فهـو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن قـالوا: قاتلك الله وما تغني عنـا دارُك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهـو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وأصبحت مكـة وقد قيَّد الرعـب حركتهـا، واختفى رجالها وراء الأبـواب المغلقة، أو اجتمعـوا في المسجد الحرام يـرقبـون الأحداث وهم واجمون، وزحف الجيش المنصـور ورسـول الله على ناقته تُتَـوِّج هامته عمامة دسماء ورأسه خفيض من شـدة التخشع لله، وبدا عليه التواضع الجمُّ حتى كاد عُثْنُونُـه يمس واسطة الرحل، وسار في وسط جيش دارع ينتظر منـه إشارة فلا يبقى بمكة شيء آمـن، ولكنه ﷺ آثر أن يدخلهـا في هدوء

وتواضع، حتى إنه أخـذ الراية من سعد بن عبادة حين علم أنه يقـول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلَّ الله قـريشًا، ودفعها لابنه قيس وقال: «بل اليوم يوم تعظَّمُ فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا».

وتـذكـر رسـول الله ﷺ الماضي الطـويل كيف خـرج مطـاردًا، وكيف خـرج أصحابه مهـاجرين واليوم، يعود منصورًا مـؤيدًا في الفتح العظيم، ودخل مكة من أعلاهـا وأمر أصحابـه بألا يقاتلوا إلا مـن قاتلهم، فدخلت بقيـة الفرق من أنحـاء مكة الأخـرى، ودخل خالـد بن الـوليد من أسفل مكـة ولقي شبابًـا من قريش قـد غاظهم هذا الاستسـلام من آبائهم، فتجمعـوا عند الخَنْدَمـة يقودهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وصفـوان بن أمية، ولكنهم فوجئوا بقوة لا قبل لهم بها فقد حصدهم خـالد وجنده حصدًا فلاذوا بـالفرار، ولم تُغْنِ أسلحة حِماس بن قيس عنه شيئـا وكان قد أعـدَّها منذ زمن بعيـد لمحمد وأصحابـه وقد وعد زوجته أن يخدمهـا بعضهم، لكنه خرج منهزمًا إلى بيته طـالبًا من زوجته أن تُغلق عليه الباب فقد رأى ما لم يعهده من قبل.

وهكذا استسلمت مكـة، وعَلَتْ كلمة الله في جنبـاتها، ووصل رسول الله إلى البيت العتيق، فاستلم الحجر وطـاف وفي يده قوس طعن به أصنـام قريش وهو يردد: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾ [٨١] الإسراء.

ودخل الكعبة فطهَّرها من الصـور والأصنام، وصلى فيها ركعتين ثم أقبل على قريش وقـد اصطفوا حول الكعبـة فقال لهم: «لا إله إلا الله وحده صـدق وعده ونصر عبده وهـزم الأحزاب وحده، ثم قال: يـا معشر قريش ما تـرون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء» وأمر ﷺ بلالاً أن يصعد على الكعبة فيـؤذن فارتفع نـداء الحق في بيت الله الحرام وأذعنت له رقـاب القوم فأقبلوا يسلمون ويعتذرون.

وخطب رسول الله في الناس فأكَّد حرمة مكة إلى يوم القيامة .

وخشي الأنصار أن يفارقهم رسول الله بعد أن فتح الله بلده ووطنه فيقيم فيها ، وعلم رسول الله ﷺ بما تخوفوه فقال لهم : «معاذ الله . المحيا محياكم والمات مماتكم» وقرت أعينهم بذلك واطمأنت نفوسهم .

وفي يوم الفتح ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ، ولم تسمع آذانهم صوت بلالٍ يرنُّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم تر أعينهم الأصنام مكبوبة على وجوهها ، ولم تقر نفوسهم بإسلام أهلها وانقيادهم ، لقد قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة بين الإيمان والكفر ، فجزاؤهم مكفول عند من لا تضيع عنده الأعمال .

وهكذا دخل أهل مكة في الإسلام ، وذهبت القوة التي تحمي الوثنية وتقاتل دونها ، وكان ذلك إيذانًا بانتشار التوحيد في كل أرجاء الجزيرة ، بل وفي كل بقاع الأرض .

وظلَّ رسول الله ﷺ في مكة طيلة رمضان ، يبعثُ السرايا إلى الأصنام فتحطمها ، وينقاد عُبَّادها إلى دعوة الحق مذعنين ، فقد فتح الجميع أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتى خيِّل لهم أن النصر معقود بألوية الإسلام لا ينفك عنها أبدًا .

المصادر والمراجع :

١ ـ عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون .

٢ ـ ابن عبد البر النمري : الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق : شوقي ضيف .

٣ ـ الحافظ ابن كثير : سيرة الرسول ﷺ ، من كتاب البداية والنهاية جـ ٢ ، ٣ .

٤ ـ ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد جـ ٣ تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط .

٥ ـ سيد قطب : في ظلال القرآن .

٦ ـ محمد الغزالي : فقه السيرة .

٧ ـ مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ط (١) الرياض .

وقعة البويب
سنة ثلاث عشرة هجرية

بعد وفاة المصطفى ﷺ، وتولي أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة من بعده، اجتهد رضي الله عنه في تبليغ دين الله وإيصاله إلى كل الناس، وقابلته في أول خلافته مشكلة المرتدين، ولكن الله أعانه فهزمهم وردهم إلى حظيرة الإسلام، ثم تفرغ للفتح ونشر الإسلام، فأرسل الجيوش الإسلامية تنشر دين الله في المشرق والمغرب وتحمس المسلمون لهذا الأمر، وبدأوا يوجهون الضربات القاتلة والهزائم الساحقة للدولتين العظميين آنذاك فارس والروم، وحينما مرض الصديق رضي الله عنه مرض الموت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة كان مطمئنًا على ما حقق من فتوح وانتصارات، ومع ذلك استدعى خليفته الفاروق عمر وأوصاه وهو يجود بأنفاسه وقال له: «إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تَنْدُبَ الناس مع المثنى وإن أنا تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تَنْدُب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني مُتَوَفَّى رسولِ الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله» وهكذا لم يشغله المرض، بل الموت عن الدعوة ونشر الإسلام فكانت آخر وصاياه رضي الله عنه، ومات من يومه، فلما فرغ عمر من دفنه بدأ من فوره بتنفيذ الوصية وهي ندب الناس مع المثنى لفتح العراق، واستثقل المسلمون هذا الأمر فظل ثلاث ليال لا يستجيب له أحدٌ لما يعرفون من شدة قتال الفرس وعظيم بأسهم، وهنا قام القائد المسلم المثنى بن حارثة الشيباني فقال: «أيها الناس لا يعظُمنَّ عليكم هذا الوجه فإنا قد فتحنا ريف فارس، وغلبناهم على شقي السواد، ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا إن شاء الله ما بعدها» والمثنى واحد من عظماء القادة المسلمين حقق الله على يديه للإسلام والمسلمين انتصارات عظيمة

ومنها انتصارهم في موقعة البويب التي حـدثت في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة .

وقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخطب مستحثا المسلمين ، وكان مما قاله : «أين الطرّاء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله أن يورثكموها فإنه قال : ﴿ليظهره على الدين كله﴾ [٢٨] الفتح ، والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولي أهله مواريثَ الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟»

أثرت هذه الكلمات البليغة في جموع المسلمين فتسابقوا للإجابة ، وكان أول مجيب هو أبا عبيد بن مسعود الثقفي ، ثم تتابع الناس حتى كثروا ، وطلبوا من الخليفة عمر أن يوليّ أحد المهاجرين أو الأنصار قائدًا لهم ، فقال : لا والله لا أفعلْ ، وأمّر عليهم أول المجيبين أباعبيد الثقفي ، وأوصاه فقال : اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين ، فإنها الحربُ ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، وأوصاه بجنده ، ثم سار الجيشُ الإسلامي على بركة الله إلى العراق ، فكانت واقعة النمارق أول المعارك لهم مع الفرس ، فحققوا فيها انتصارًا عظيمًا ثم كان يوم الجسر حيث حشد الفرسُ جيشًا كثيفًا تتقدمه الفيلة ، وأقبلوا على المسلمين وحال نهرُ الفرات بين الجانبين ، وأرسل قائد الفرس لقائد المسلمين أبي عبيد : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ، وعقد أبو عبيد مجلسًا حربيًّا للمشاورة في الأمر حسب وصية الخليفة وحسب تعاليم الإسلام ، وأشار أصحابه عليه بعدم العبور وأن يترك الفرس يعبرون إليهم ، ولكنه خالف رأيهم وقال : «لا يكونون أجرأ على الموت منا» وارتكب هذا القائد المسلم خطأ بمخالفة رأي الشورىٰ ، وأطاعه جنده ولم يعصوه وأعد الجسر للعبور ، وعبر المسلمون إلى شرق الفرات ، وبدأت المعركة ودارت رحى الحرب وماجت الأرض بالمقاتلة ، وأبلى المسلمون بلاءً حسنا ، وصافحوا أعداءهم بالسيوف ، ولكن خيلهم نفرت من الفيلة ، فترجل أبو عبيد

والمسلمون وأخذوا يضربون الفيلة وقطعوا وضنها فسقط من عليها من الرجال، وقتلوا، وكان الفرس قد قدَّموا أمامهم فيلاً عظيماً أثخن في المسلمين فتقدم له أبو عبيد وضربه بسيفه ضربة قطعت ذلُومه فحمي الفيل وصاح صيحة عظيمة وقذف بأبي عبيد ثم وقف عليه برجليه فقتله من ساعته ـ رحمه الله ـ وهكذا قتل قائد المسلمين وتولى من بعده سبعة قادة كلهم يقتلون، حتى تسلَّم الراية المثنى ابن حارثة فعزم على التراجع بالمسلمين لحماية من بقي منهم، وعقد الجسر ووقف عليه وقال للناس «على هِنّتِكم فإني واقف على فم الجسر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد هنا» وأشرف على عبور المسلمين جميعًا ثم سار بهم إلى معسكرهم.

وهكذا انكسر المسلمون وقتل منهم عدد كبير حتى انبرى هذا القائد الشجاع فأنقذ البقية الباقية منهم وأصبح منذ ذلك الوقت قائدًا للجيش الإسلامي في العراق، ووصل الخبر إلى عمر رضي الله عنه فحزن حزنًا شديدًا ولكنه لم ييأس، واستقبل الفارين إلى المدينة ولم يؤنبهم، بل قال لهم: أنا فيئكم، وأخذ يعد العدة للثأر من الفرس واسترداد هيبة المسلمين في العراق، والمثنى في موقعه ينتظر المدد استعدادًا لمعركة البويب وكان أول أعمال المثنى ـ رحمه الله ـ حينما تولى القيادة طلب المدد والمساعدة من بقية الأمراء في العراق فبعثوا إليه بالإمداد، كما أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمده بمدد كثير جلُّهم من بَجيلَةَ وفيهم جرير بن عبد الله البجلي وغيره من سادات المسلمين حتى كثر جيش المثنى وتقوى بهم.

سمع أمراء الفرس بمقدم هذه الجموع وكثرة جيوش المثنى فبعثوا جيشًا آخر بقيادة مهران والتقى الجمعان في مكان يقال له البويب قرب موقع الكوفة لا يفصل بينهم إلا نهر الفرات، وأرسل مهران إلى المثنى يقول له: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم، وكان طبيعيًا أن يطلب المثنى منهم العبور بعد الذي حدث في موقعة الجسر، فعبر الفرس وتقابل الفريقان في شهر رمضان، وعزم المثنى على

المسلمين في الفطـر فأفطروا عن آخـرهـم ليكـون أقوى لهـم، وجعل يمـر على كل راية مـن رايات الأمراء على القبـائل ويعظهم ويحثهم على الجهـاد والصبر. وقال لهم: إني مكبرٌ ثلاث تكبيرات فتهيأوا، فإذا كبرت الرابعـة فاحملوا، فقابلـوا قوله بالسمع والطـاعة والقبـول، فلما كبر أول تكبيرة عاجلتهم الفـرسُ فاقتتلـوا قتالاً شديـدًا، ورأى المثنى في بعض صفوفـه خللاً، فبعث إليهم رجـلاً يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا العـرب فاعتدلوا، وأخذ المثنى ينادي فيهم ويقـول: «يـا معشر المسلمين، عـاداتكـم انصروا الله ينصركم» وأخـذ المسلمون يدعون له بالظفر والنصر.

واشتـد القتال بين المسلمين وعـدوهم، وكانت الحرب في هـذه الوقعـة أشد مـا صادفـه المسلمون لكثرة عـدوهم، ولما طالت مـدة الحرب جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال يحمون ظهره، وحمل على مهران فأزاله عن موضعه ثم حمل غلام على مهران فقتلـه، وانهزمت جموع الفرس إلى الجسر يريـدون النجاة، لكن المثنى قطعه فعادوا للقتال فقتل منهم عدد كبير وغـرق في النهر آخرون، وقد ندم المثنى رحمه الله ورضي عنه بعد ذلك لقطعة خط الـرجعة على عدوه ودفعهم إلى القتال.

وهكذا انتصر المسلمون في هذه المعـركة وبلغ عدد قتلى الفرس عشرات الآلاف، وغنم المسلمون مغانـم كثيرة، وبعثوا البشارة والأخماس إلى الخليفة رضي الله عنه، وعد كثير من المؤرخين هـذه المعركـة من المعارك الكبرى في التـاريخ الإسلامي، وشبهها ابن كثير رحمه الله بمعركة اليرموك في الشام لما ترتب عليها من آثار ونتائج مهمـة فقـد ذلت لهذه الـوقعة رقـاب الفـرس وتمكن المسلمـون من الغـارات في بلادهم فيما بين الفـرات ودجلة لما وقع في قلـوبهم من الرعب والخوف، ورجعت بلاد العراق للمسلمين، ووصلت بعض الفرق الإسلامية إلى قرب المدائن نفسها ولم تجد مقـاومـة واستـولت فـرقة على بغـداد وكـانت إذ ذاك قـريـة صغيرة، كما استولت أخرى على تكريت شمال العراق.

وفي هذه الموقعة يقول الأعور الشني العبديُّ .

هـاجت لأعـور دار الحي أحـزانـا   واستبدلت بعد عبـد القيس حسانا

وقـــد أرانـــا بها والشمـل مجتمع   إذ بـالنحيلـة قتلى جنـدُ مهـرانـا

إذ كـان سـار المثنـى بـالخيـول لهم   فقتّل الـزحف من فـرس وجيـلانـا

سما لمهـران والجيش الـذي معـه   حتى أبـادهمُ مثنى ووحـدانـا

والحقيقة أن قـائد المسلمين المثنى بن حـارثة الشيبـاني قد أبلى في ذلك اليـوم بلاءً حسنًا رغـم أنه كـان يعاني من جـرح أصابـه يوم الجسر، وكـان لأعمـاله البطـولية وتشجيعـه للمسلمين أبلغ الأثر على نفـوسهم ، وكـان يهون عليهم أمر الفـرس ويقول عنهم : «لقـد قاتلت العرب والعجم في الجاهليـة والإسلام والله لمائة من العجم في الجاهلية كـانوا أشد عليّ من ألف من العرب ، ولمائة اليـوم من العرب أشـدُّ عليّ من ألف مـن العجم إن الله أذهب مصـدوقتهم ووهّن كيـدهم فـلا يروعنّكم زهاءٌ ترونه ولا سوادٌ ، ولا قسيٌّ مج ولا نبال طوال فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوهـا كالبهائم أينما وجهتموهـا اتجهت» وقد صدق رضي الله عنه فقـد أعزَّ الله العـرب بالإسـلام ، وقد كـانوا قبلـه أذلـة للفرس والـروم ، وحركتهم عقيـدة الإسلام فأصبحوا سادة الأرض وحكامها يقودون الإنسانية إلى الخير والرشاد .

وبعد هذه المعـركة بأيام انتقض جرح المثنى فمات رحمه الله ورضي عنـه ، وقد كان ينتظر وصـول الجيش الإسلامي الكبير بقيادة سعد بن أبي وقـاص فرضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين ، ورحم الله المجاهدين المسلمين وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء ، ووفق المسلمين للاقتداء بهم والسير على منوالهم .

المصادر:

١ ـ ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٧١ وما بعدها ، دار الفكر، بيروت .

٢ ـ أبـو العباس البـلاذري : فتوح البلدان ص ٣٥٣ ، تحقيـق عبد الله وعمر الطبـاع ، مؤسسـة المعارف ، بيروت .

٣ ـ عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٣٠٣ وما بعدها ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٤ ـ الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٨ ص ٢٩ .

فتح النوبة ومعاهدة البقط

سنة ٣١ هـ

سينقلنا الحديث إلى منطقة من مناطق المسلمين لنتعرف على بداية دخول الإسلام لها بعد معركة من معارك المسلمين العظيمة تمخضت عن عهد كان له عظيم الأثر في انتشار الإسلام في تلك البقاع .

أما المنطقة فهي بلاد النُّوبة الواقعة جنوب مصر، وأما قائد هذه المعركة فهو الصحابي الجليل عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

بدأت علاقة المسلمين بهذه المنطقة بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة بقيادة عقبة بن نافع الفهري رحمه الله فدخل تلك البلاد، ولقي المسلمون قتالاً شديدًا ، حيث كان النوبيون يجيدون الرمي بالسهام فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم ، فانصرف المسلمون وقد فقئت حدق الكثير منهم من جراء النبل ولذا سموهم «رماة الحدق» ، وتمخض عن هذه الحملة عقد صلح بينهم وبين المسلمين تقررت من جرائه الهدنة .

وظلَّ الوضع على ذلك حتى تولى ولاية مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فنقض النوبيون الصلح وهاجموا صعيد مصر وأفسدوا فيه ، فخرج عبد الله بن أبي سرح بجيش تعداده عشرون ألفا وتوغل في بلادهم جنوبا ووصل عاصمتهم دنقلة فحاصرها حصارا شديدا ورماها بالمنجنيق وضيق على أهلها حتى اضطروا للتسليم ، وطلب ملكهم «قليدور» الصلح ، وخرج إلى عبد الله بن أبي سرح ، وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعًا فتلقاه عبد الله وقرر الصلح معه وعقدت بين الجانبين معاهدة فريدة من نوعها ، كان لها عظيم الأثر على عملية انتشار الإسلام في شرق القارة الإفريقية ، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة احدى وثلاثين هجرية .

وجاء في هذه المعاهدة :

«عهدٌ من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته: عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة، من أرض أسوان إلى حد أرض علوة أن عبد الله جعل لهم أمانًا وهدنة:

إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد ﷺ أن لا نحاربكم، ولا نَنْصُبَ لكم حربًا، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم».

ثم يعدد العهد الشرائط تلك ومنها:

- عليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم.

- وعليكم ردَّ من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين وأن تخرجوه من بلادكم.

- وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليا، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنكم، وعليكم كنْسه وإسراجه وتكرمته.

- وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسًا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم.

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به... الله الشاهد بيننا وبينكم. وكتب عمر بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين هجرية.

هذا هو عقد الصلح الذي تم بين المسلمين وبين النوبة، وإذا نحن تمعنَّا في بنوده وجدناها عوامل مهمة لنشر الإسلام في تلك البلاد.

ولربما كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أدرك صعوبة فتح تلك المناطق لوعورة تضاريسها ولشدة أهلها في القتال، فأراد أن يوفر بهذه المعاهدة مناخًا مناسبا لانتشار الإسلام بصورة سلمية.

ولقد حصل هذا فعلاً فظلت المعاهدة أساسا للعلاقات بين المسلمين وبين النوبة حتى انتشر الإسلام فيها، وأصبحت بذلك جزءًا من العالم الإسلامي،

ولنعد إلى بنود المعاهدة لنرى أثرها في ذلك .

كان من أول الشروط التي اشترطها عبد الله رضي الله عنه حفظ من دخل النوبة من المسلمين وهو بهذا يضمن سلامة الدعاة المسلمين، وكذلك التجار، فيدخلون إلى تلك المناطق، ويقومون بدعوة أهلها إلى الإسلام دون عوائق . حيث إنهم تحت حماية الدولة الإسلامية، ولو كانوا خارج حدودها في بلاد النوبة. واستفاد الدعاة من هذا الشرط، وتوغلوا في تلك البلاد حتى وصلوا الحبشة وأواسط السودان الحالية، واستطاعوا تحويل أهلها إلى الإسلام .

ومن الشروط كذلك: حفظ المسجد الذي بني خارج عاصمة النوبة دنقلة بل واشترط عليهم كنسه وإسراجه وتكرمته وعدم منع المسلمين من الصلاة أو الإقامة فيه .

وهكذا ضمنت هذه المعاهدة بقاء مركزٍ للدعوة الإسلامية في تلك البلاد النصرانية، ذلك أن المسجد هو منطلق الدعوة ومركزها، وكان أول عمل يقوم به الدعاة هو بناء المساجد ومن ثم تبدأ الدعوة منها، ولازال المسجد يقوم بدور كبير في القارة الأفريقية حتى الآن، بمعنى أنه يؤدي وظيفته الحقيقية. وقد ظلَّ مسجد دنقلة الذي بناه المسلمون منذ سنة إحدى وثلاثين هجرية فترة زمنية طويلة يؤدي رسالته في الدعوة الإسلامية، ويؤمه الدعاة من مختلف أقطار العالم الإسلامي فيستقرون فيه أو حوله ويدعون الناس إلى الإسلام مما كان له عظيم الأثر في تحطيم الوجود النصراني والقضاء عليه .

وفي الشرط الأخير من شروط المعاهدة تعهد النوبيون بدفع ثلاثمائة وستين رأسًا من الرقيق إلى والي المسلمين، ولقد كانت النوبة منذ القدم تشتهر بتصدير هؤلاء الرقيق فرأى قائد المسلمين عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يستأثر بهؤلاء الرقيق للدولة الإسلامية، فإذا سُلِّموا للمسلمين أصبحوا مماليك دولة لا رقيق أفراد، وينتج عن ذلك عدد من النتائج :

فهؤلاء يتحولون إلى الإسلام وينقذون من الكفر والضلال لأنهم في الأصل إما من

النصارى أو الوثنيين، ولذلك فقد قال أحـدهم لتاجر أوروبي لقيه في مصر: إننا في الحقيقـة لا نأتي من الحريـة للـرق، بل إننا نأتي مـن الرق الحقيقي والعبـوديـة للبشر لنصبح أحـرارًا بالإسـلام، وقد كـان لهؤلاء بعد إسـلامهم شأن في الدولـة الإسـلامية فكـان منهم الجند والـوزراء بل والولاة أحيـانا، وبعض هـؤلاء يؤثـر العودة إلى مـوطنه بعـد إسلامه فيعـود إليها داعيًـا للإسـلام، وهكذا فلم يمض القرن الثامـن الهجري حتى أصبحت بلاد النوبـة كلها بلادًا إسلاميـة وأهلها قد اعتنقوا الإسلام، وذلك بطـريقة سلمية جراء تأثير بنود هذه المعـاهدة، وفي هذا ما يدحض تلك الفرية التي طالما ردَّدهـا الغربيون وتلامذتهم وهي أن الإسلام لا ينتشر إلا بالقوة والسف.

رضي الله عن عبـد الله بن أبي سرح الـذي مهَّـد الطـريق لنشر الإسـلام في تلك البقاع.

المصادر:

١ ـ ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ١٨٨ الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢ ـ البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٣١.

٣ ـ أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٤٤١ دار الأندلس، بيروت

٤ ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ٢٠٠، القاهرة ١٢٧٠ هـ.

فتح الأنــدلــس
سنــة ٩٢ هـ

سيكون حديثنا عن معركة عظيمـة من معارك المسلمين، أما ميدانها فهو شبه جزيـرة أيبريا، التي عـرفت فيما بعد بـاسم الأنـدلس، وأما قـائدها فواحـد من أبطال الإسلام الأفذاذ، بربري من أفريقيا، أكرمه الله بخدمة هذا الدين ونشره، فوهب له حياته وعمره، فكان فتح الأندلس على يديه وحاز ثواب الدنيا بالنصر المكين، وسينال أجـر الآخرة ــ إن شاء الله ــ لدى أحكم الحاكمين، إنـه القائد المظفر طارق بن زياد رحمه الله.

بدأ التفكير في فتح الأنـدلس بعد أن أتم المسلمـون فتح بلاد المغـرب على يد القـائد المسلم مـوسى بن نصير، فقـد استطـاع هـذا القائد أن يـدعِّم الـوجـود الإسلاميَّ في المغرب الأقصى، كما أنه قام بـدور كبير في تعليم الناس هذا الدين وتفقيههم فيه، فكان يجمع إلى جانب القيادة العسكرية صفة الداعية المسلم.

وبهذا الفتح لبلاد المغـرب دخل البربر في دين الله أفـواجًا وأصبحـوا هم أيضًا من الـدعاة له والمجـاهدين في سبيلـه، واتجهت أنظارهم إلى الشمال حيـث شبه جـزيرة أيبريـا التي تمثل المدخل الجنوبيَّ لأوروبـا. ولم يكن والي أفريقيـة المسلم مـوسى بن نصير ليَقـدم على عمل عظيم مثل هـذا دون أن يستشير الخليفـة الأمـويَّ، الوليـد بن عبد الملك في دمشق، فأرسل إليـه يستأذنه، فتردد الخليفـة وخاف على المسلمين مغبَّـة خاطـرة كهذه في أرض مجهولـة، ولذا أمـر موسى بنَ نصير بإرسال سرية صغيرة إلى بلاد الأندلس لاختبار الأوضاع قبل إرسال الجيش الإسلامي.

واستجاب مـوسى لأمر الخليفـة واختار واحـدًا من كبار رجـاله لتنفيـذ هذه المهمة وهـو طَرِيف بن ملوك، فعبر إلى الأندلـس في أربعة مراكب بقوة عـددها مائة فارس وأربعمائة راجل، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين

هجريـة . ونزل المسلمون في الموضع الـذي قامت فيه بعـد ذلك بلدة تحمل اسم هـذا القـائد طـريف . ومن هـذا الموضع قـام المسلمـون بسلسلـة من الغـارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانـم كثيرة وسبيًا عديدًا ، وعادوا بعد ذلك إلى أفـريقية وبعثـوا بالأخبـار إلى موسى في القيروان فتشجع عنـدئذ ، وأخذ يستعـد لإرسال حملة كبيرة تقوم بالفتح الحقيقي لتلك البلاد .

ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده هو طارق بن زياد الذي تشير أكثر الـروايات إلى أنه من البربـر وأن والده زيادًا قـد اعتنق الإسلام ، فنشأ ابنه طـارق مسلمًا متدينًا محبًّا للجهـاد دخل في خدمة ولاة المسلمين ، فعهـد إليه موسى بهذه المهمـة ، وكان إذ ذاك شابًّـا يافعًـا مقربا لموسى ، يثق فيـه كثيرا ولذا أسند له هذه المهمة الخطيرة وتعدى غيره من القادة .

تكـوَّن الجيش المسلم الـــذي سيعبر إلى الأنـــدلس من البربـــر، واشتهـــروا بالشجاعـة الفائقة ، وقد حـولهم الإسلام إلى مجاهدين في سبيل الله بعـد أن كانوا يستغلون مزاياهـم الحربية في قتال بعضهم ، وفي النهب والسلب ، وبدأ العبور في رجب من سنـــة اثنتين وتسعين للهجـــرة ، ولم يتيسر للمسلمين إلا أربـع سفن قدمها لهم دليلهم يليان ، ولذا كـان لا بد من العبور على دفعات ، وأن يستخفي العابرون الألون عن أهل الشاطئ حتى يكتمل عبور الجيش .

وتم عبـور المسلمين للمضيق ، وتجمع الجيـش الإسـلامي عنـد الجبل الـذي عرف فيما بعد بجبل طـارق ، واجتهد طارق في تحصين هذا المكان تحصينـا قويًّا حتى يحتمي به المسلمون إذا حدث ما لا يتوقعونه .

وقد أشار بعض المؤرخين المتأخرين إلى أنَّ طارقًا قد أحرق السفن التي عبر بها ليـدفع جنـده إلى الاستماتـة في القتـال ، والحقيقـة أن المحققين من المؤرخين قـد استبعدوا هذه القصة وعدوها من المبالغات التي لم يكن لها أصل من الواقع .

ومهما يكن الأمـر فقد بـدأت الفرق الإسـلامية تغير على المنـاطق القريبـة من جبل طـارق واستولت على الجزيـرة الخضراء قبـالة جبـل طارق وبـذلك أصبح

مضيق جبل طارق كله في يد المسلمين، وبذا أمّن طارق مركز الجيش الإسلامي وطرق مواصلاته مع أفريقيا.

وعلم ملك القوط لُذَرِيقْ بخبر المسلمين فبدأ يستعد لملاقاتهم، وأرسل فرقة من جيشه بقيادة بَنْج لمهاجمة المسلمين في معقلهم، إلا أن المسلمين قضوا على هذه الفرقة، ولم ينج منها إلا رجل واحد، عاد مسرعا إلى معسكر لذريق ليخبره بذلك، عندئذ سار لذريق نحو الجنوب، واستولى على قرطبة، ثم سار بجيشه جنوبًا لصدِّ المسلمين، فلما وصل إلى شذونة عسكر في سهل البرباط استعدادًا للمعركة الفاصلة.

أما المسلمون فقد سار بهم طارق بن زياد ـ رحمه الله ـ بحذاءِ الساحل ثم اتجه شمالا قاصدًا قرطبة عاصمة إقليم «بيطي» حتى وصل نهر البرباط فتوقف عنده، وبعث عيونه يتجسسون أخبارَ لذريق، فعلم بمقدمه إلى تلك المنطقة، كما عرف حجم جيشه الكبير والذي يصل تعداده إلى مائة ألف أو يزيد، معظمهم من الفرسان، وهنا أدرك طارق عظم الفارق العددي بين الجيشين، وخشي أن يؤثر ذلك في جنده، فأرسل إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد، فعجَّل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم القائد الذي عبر إلى الأندلس أول مرة طريف بن ملوك، وكان جلهم من العرب، ووصلوا قبل اللقاء الحاسم فقويت بهم نفوس المسلمين.

وكان لِحُسْن المعاملة التي لقيها أهل البلاد من المسلمين أثر في انضمام أعداد منهم إليهم فاستفاد المسلمون من معرفتهم بالبلاد وأهلها، كما أن بعض قادة لذريق قد عزم على الانضمام للمسلمين وقتَ المعركة.

وهكذا استعد الجانبان للقتال، وتقدمت فرقة من جيش لذريق لاختبار قوة المسلمين، وما أن رآهم المسلمون حتى انقضوا عليهم فولوا هاربين يصفون لقائدهم بأس المسلمين وشجاعتهم.

وفي يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة اثنتين وتسعين للهجرة

اشتبك الجيشـان في معـركـة حمي وطيسها طـوال ذلك اليـوم، وفي اليـوم الثـاني أظهرت فـرقة السـودان الذين جعلهم طـارق مقدمـة لجيشه مقـدرة عظيمة على التصدي لفرسـان القوط النصارى، وثبت المسلمون في القتـال على الرغم من أن جلهم كان من الرجـالة بينما كان غالب القـوط من الفرسان، وانضم للمسلمين عدد من أعـدائهم تشفيا من لُـذريق واستمرت المعركـة ثمانية أيام، وفي النهـاية وقعت الفـوضى في جيش لذريق واضطـرب نظـامه، ولاذ من بقي منـه بالفـرار وأسيـاف المسلمين في أقفيتهم فقتل منهم عـدد عظيم، ولم يعثـر لقـائدهم على أثـر، وأصاب المسلمـون من هذه الموقعـة غنائم لا تحصى لعلَّ من أهمهـا الخيل التي يفتقرون إليها، حتى لم يبق منهم راجل.

وفي هـذه المعركـة الحاسمة استشهـد من المسلمين ثلاثـة آلاف، وبقي منهم خمسة آلاف زادهـم النصر حماسة وإقداما، فأسرع بهم طارق نحو قرطبة.

وهكـذا انتصر المسلمون بإيمانهم وعقيـدتهم على عدو يفـوقهم عددًا وعـدة، وأصبحت كل بلاد الأنـدلس تنتظر حكم المسلمين، والمسألـة وقت فقط حيث تتهاوى المدن في يد المسلمين.

لقد أثبتـت هذه المعركـة حرص المسلمين الأوائل على نشر دينهـم لا فرق بين عربي أو بـربري أو زنجي، فقـد اتحد الجميع في جيش واحد، ولتحقيـق هدف واحد هو إيصال دين الله إلى العالمين.

وكان لهذا الانتصار الإسلامي الكبير على النصـارى أثر كبير في بلاد المغرب، فزفـت البشرى إلى هناك «وتسامـع الناس من أهل بـر العُدْوَة بالفتـح على طارق بالأنـدلس، . . . فأقبلوا نحوه من كل وجـه، وخرقوا البحر على كل مـا قدروا عليـه من مـركب وقُشْر، فلحقـوا بطـارق، وارتفع أهل الأنـدلس عنـد ذلك إلى الحصون والقلاع وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال».

وسـار طارق بـالمسلمين حتى وصل مـدينة شَـذُونـة، فحاصرهـا حتى أنهك أهلها وفتحها عنوة، ثم سار إلى مدينة إِسْتِجـة وفيها فلولُ جيش لذريق فقاتلوا

المسلمين قتالاً شديدًا، حتى كثر القتل والجراح في المسلمين، ثم أظهر الله المسلمين عليهم، فهزموهم، وقد أسر طارق حاكمها بنفسه، وصالحه على الجزية، وفي هذه المدينة وجد طارق ــ رحمه الله ـ أن جيشه قد تضخَّم لكثرة المجاهدين الذين يعبرون من المغرب، وأدرك صعوبة السير به كله، فعمد إلى تفريقه مع الأمراء والقادة لفتح المدن الأخرى.

فأرسل مغيثًا الروميَّ بفرقة إلى قرطبة ففتحها واستولى عليها.

وأرسل فرقة إلى مالقة وأخرى إلى غَرْنَاطَة وهكذا.

أما هو فقد سار في بقية الجيش إلى طليطلة دار مملكة القُوطِ، فلما وصلها ألفاها خالية، وقد فرَّ عنها أهلُها، فاستولى عليها، ثم اتجه إلى جلِّيقية وفتح بعض مدنها ثم عاد إلى طليطلة.

وهكذا استطاع المسلمون فتح إقليم عظيم من أقاليم أوروبا في مدة زمنية وجيزة وبخسائر قليلة، وما ذلك إلا بعون الله وتأييده بعد أن صدقوه وأخلصوا له سبحانه وتعالى.

على أننا ونحن نتحدث عن فتح الأندلس لا نستطيع إهمال الدور العظيم الذي قام به القائد الآخر للجيش الإسلامي ووالي أفريقية من قبل الخلافة الإسلامية موسى بن نصير رحمه الله.

فقد عبر بجيش آخر تعداده ثمانية عشر ألفًا وذلك في شهر رمضان سنة ثلاثٍ وتسعين هجرية.

وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى أمرٍ مهم نُسبَ إلى هذا القائد المسلم، والتابعي الجليل، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه حَسَدَ طارقًا، وأراد أن لا يرتفع ذكره، وغَمَّه ما حققه من انتصارات، وهذا في الحقيقة اتهام لا يسنُدُه دليل ولا برهان ويجب علينا أن نربأ بأولئك المجاهدين عن الضغائن والأحقاد، وقد باعوا أنفسهم في سبيل الله، وكلُّ ما في الأمر أنه أراد أن يحوز شرف الجهاد وأن تغبر قدماه في سبيل الله، ولعمري إنه ميدان التنافس الحقيقي. وهكذا عبر موسى ـ

رحمه الله ـ بجيشه في رمضـان وبدأ في فتح المدن والقلاع متخذا طـريقا آخر غير الطـريق الذي سلكـه طـارق، وذلك لبعد نظـره وحسن قيـادته، وليس تنكُّبـا لطريق طارق حسـدًا له كما ذكر بعض المؤرخين، فقد أراد ـ رحمه الله ـ وقد أقبل في هـذا الجيش الكبير من المسلمين أن يفتح بـه بـلادًا لم تفتح بعـد، فليس من الحكمـة في شيء السيرُ بـه في بـلاد ومـدائن قـد فتحت وانتهى أمـرهـا، وليس للحسد في هذا الموضع مكان، لأن طارقًا ـ مهما كان الحال ـ مولاه وتابعه وباسمه يفتح.

وبدأ مـوسى في فتح المدن الأندلسية، ففتح شَـذُونة، ثم فتح مـدينة قَرْمُـونة وهي من المدن الحصينـة المنيعـة، وحـاصر إشبيليـة حتـى استسلمت بعـد أن استشهـد على سورهـا عـدد من المسلمين، واستمر مـوسى يفتح المدن والقـلاع حتى التقى بطارق قـرب طليطلة، وهنا أيضا تسيء بعض المصـادر التاريخية إلى هذين القائدين وتُصور موسى وقـد غضب على طارق وضربه أو قيده، والحقيقة أن شيئا من هذا كله لم يحدث، بـدليل تعاونهما بعد ذلك لإكمال الفتح العظيم، يقـول أحـد البـاحثين: «الـواقع أن مـوسى يعمل مع طـارق من أول نـزولـه الأندلس. . . وقد أتم الـرجلان الفتح معا على أحسن ما يكون الرجـال تعاونًا، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقا وقف يشكو موسى بين يدي الخليفة».

بل إن موسى ـ رحمه الله ـ أمر طارقا بـالتقدم أمامه في أصحابـه وهو خلفه في جيـوشه فـارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتـح مدينـة سَرَقُسْطة وأعمالها، وأوغـلا في البلاد، لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنَّمهما الله تعـالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفـار فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، ونصرهما الله نصرًا مـا عليـه مـزيـد، ووصلت طـلائع المسلمين بـلاد الإفـرنج في أقصى الشمال، واستنجدوا بملك فرنسا وقالوا لـه: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعـرب ونخافهم من جهة مطلع الشمـس حتى أتوا من مغربها، واستـولوا على بلاد الأندلس وعظيـم ما فيها من العدة والعدد بجمعهـم القليل وقلة عُدَّتهم.

فقال لهم ما معناه : الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر، يقول أحد المؤرخين : فكان والله كذلك بالفتن التي طرأت بين المسلمين بعد ذلك فصار بعض المسلمين يستعينُ على بعض بمن يجاورهم من الأعداء .

وهكذا فتح المسلمون بلاد الأندلس وقهروا القوط النصارى وكان عزم موسى ـ رحمه الله ـ أن يستمر بالفتوح عبر وسط أوروبا حتى القسطنطينية وأن يفتح طريقًا جديدًا بين الشام والأندلس ، ولكن أوامر الخلافة وصلته تستدعيه على عجل هو وطارق ، واستجاب ولم يخالف ، وعاد إلى الشام ليلقى الخليفة سليمان ابن عبد الملك ويبقى عنده في الشام ، حتى توفاه الله وهو في طريقه للحج ـ رحمه الله ـ أما طارق ، فكما بدأ بداية مجهولة ، فقد انتهى نهاية مجهولة ، فلم تذكر المصادر له ذكرا بعد ذلك ، وماذا يضيره ـ رحمه الله ـ إذا لم يذكره العالمون ، فإنه مذكور إن شاء الله بجهاده عند ربِّ العالمين .

رحم الله موسى بن نصير، ورحم الله طارق بن زياد ، فقد نشرا دين الله في منطقة كبيرة من أوربا ، وقاما بفتوح ليس لها مثيل في ذلك التاريخ .

المصادر والمراجع :

١ ـ أبو بكر محمد بن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله الطباع ، بيروت ١٩٥٧م .

٢ ـ ابن عذارى المراكشي : البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ ٢ تحقيق كولان وليفي برفنسال ، دار الشروق ، بيروت .

٣ ـ أحمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٤ ـ د. حسين مؤنس : فجر الأندلس الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م القاهرة .

٥ ـ عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .

فتوح المسلمين في فرنسا
سنة ١٠٢هـ

بعد أن استقر المسلمـون في الأندلس ، بدأت غـزواتهم تتجه نحو الشمال فيما وراء جبال البرانس الفاصلة بين الأندلس وفرنسا ، وتولى قيادة الجيوش الإسلامية آنذاك عدد من القادة المسلمين الذين تفـرغوا للجهاد في سبيل الله فمات أكثرهم في ساحات القتال ، رحمهم الله .

بدأت الفتوح في تلك المناطق في عهد عبـد العزيز بن موسى بن نصير، الذي تولى الأندلس بعد رحيل والده ، ولم تحدد المصادر التـاريخية مدنًا أو نوحي معينة فتحها . وتوالى الولاة على الأنـدلس حتى إذا تولى السَّمح بن مالك الخولاني اتجه نحو الجهـاد في جنوب فـرنسا ، والحقيقـة أن هذا الـوالي كان من أفـاضل عربِ أفريقية ، ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز ولاية الأندلس لما عرف عنه من الأمانة وحسن الخلق وذلك في شهر رمضـان سنة مائة هجرية وطلـب منه تنظيم البلاد وضبط أموالها ، فسار في ذلك سيرة حسنة .

وفي عهـده نشطت حـركـة الفتـوح فيما وراء جبـال البرانس ، الفـاصلـة بين الأندلس وفرنسـا ، لأنه كان رجلا وثيق الإيمان جمَّ النشـاط ، فانطلق بجيشه في عـام اثنين ومائة وفتح إقليم «سبتمانيـا» ، وهي المنطقـة السـاحلية التي تمتـد من البرانس غـربًـا إلى مصبِّ نهر الـرون شرقًـا ، وتتصل بها يعـرف اليـوم بـالـريفيرا الإيطالية . كما أنها تُطلُّ على البحـر الأبيضِ جنوب فرنسا ، وكـانت تشمل سبعة أقسام إدارية وعاصمتها «أربونة» ، وقـد استولى السمح على هذه العاصمة بعد شهر من الحصـار ، واتخذها مركـزًا وقاعدة لعملياتـه الحربية في فرنسـا ، ولا يزال يوجد بهذه المدينة شارع ينسب إليه ويعرف بشارع السمح .

انطلق السمح بعد ذلك يفتح كل المدن التي بطريقـه حتى وصل إلى طُولوشة عاصمة أكويتانيا فحاصرها ، غير أنها قاومت الحصار، حتى وصلتها الإمدادات

وعلى رأسها حاكم الإقليم الدوق أود الفرنجي، فتجمع للنصارى جيش كبير يفوق جيش المسلمين عددًا وتجهيزا، فوقف السمح في جنوده يحمِّسهم ويشد من أزرهم ويقرأ قول الله تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾ [١٦٠ آل عمران] وحدثت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى أواخر سنة اثنتين ومائة هجرية، واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبرًا كريمًا، وأصاب قائدهم سهم قاتل فاستشهد في يوم عرفة، وفتَّ ذلك في عضد الجند فتراجعوا عن طولوشة واستطاع واحد من قادته وهو عبدالرحمن الغافقي الارتداد بهم إلى أربونة بعد أن قتل منهم عدد كبير.

خلف السمح على ولاية الأندلس عنبسة بن سُحيم الكلبي، وواصل الغزو في فرنسا الجنوبية، فسار على الساحل حتى وصل إلى «قرقشونة» فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى نزل أهلُها على شروطه، فتنازلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به، وتعهدوا بردِّ أسرى المسلمين الذين كانوا عندهم، وبأن يدفعوا الجزية، ويلتزموا بأحكام أهل الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه، وأخذ منهم عنبسة بعض الرهائن وأرسلها إلى برشلونة.

وواصل عنبسة ـ رحمه الله ـ سيره، ووجد الطريق أمامه خالية، فسار مسرعًا دون أن يلقى مقاومة، وصعد حتى أدرك نهر الساءون فاستولى على أوتون، واستمر في زحفه الظافر فقذف الله في قلوب الكفار الرعب فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الصلح، واجتاح المسلمون مدينة أوزه، وفيين، وفالنسي ووصلوا إلى مدينة ليون التي يسميها العرب «حصن لودون»، كذلك زحفوا على مدينة ماسون، وشالون، ووصلوا إلى مدينة «سانس» عاصمة إقليم «يوند» على بعد ثلاثين كيلومترًا فقط جنوبيّ باريس، وقد تصدت هذه المدينة للزحف الإسلامي فكانت آخر ما وصل إليه المسلمون.

ويبدو أن القائد المسلم عنبسة بن سُحيم قد أدرك بعد هذا التقدم الظافر الذي جعله يقترب من باريس أنه توغل في قلب فرنسا أكثر مما ينبغي، فقد

طالت خطوط العودة فخشي أن تقطع عليه بعد أن ابتعد مسافة ألف ميل شمالي قرطبة، كما أن أحوال الأندلس قد بدأت تتغير بظهور العصبيات المختلفة، مما دعاه إلى العودة بعد هذا النصر العظيم.

وقد أثارت هذه الفتوح المخاوف في نواحي فرنسا، وارتاعت معظم الدوقيات وشعرت مملكة الفرنج أنها أمام خطر حقيقي، وبدا واضحا أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة.

والحقيقة أن أحوال الأندلس في ذلك الوقت قد أثرت كثيرًا على هذه الفتوح الإسلامية، ولولاها لما توقف عنبسة عن فتوحه الموفقة تلك. وفي طريق العودة داهمت جيشَ المسلمين جموع كبيرة من الفرنجة وجرح عنبسة بجروح بليغة توفي على إثرها في شهر شعبان سنة سبع ومائة هجرية، بعد أن نشر الرعب في نواحي فرنسا ووصل برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، وكفاه ذلك فخرًا حيث لم يدرك هذا الشأو بعد ذلك قائد مسلم آخر.

وهناك أمران يحسُن أن نقف عندهما وقفة سريعة:

أما الأول فهو ما ورد في بعض الكتب الغربية التي كتبت عن هذه الفتوح، ووصفتها بأنها غارات للتخريب والتدمير، ونسبت للمسلمين حرق بعض الكنائس والأديرة.

وهذا في الحقيقة لا يسُنده دليل ولا برهان، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التي كانت تسود فرنسا في ذلك الوقت من فرنج وقوط غربيين وشرقيين وغيرهم يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتدمير، ومهما بحثنا في مصادر ذلك العصر، فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث فيه رجالاً نستطيع مقارنتهم بالسمح بن مالكٍ أو بعنبسة، رحمهما الله.

وقد فتح المسلمون قبل ذلك مصر وأفريقية والأندلس، وكلها غاصة بالكنائس والأديرة فما نقل عنهم أنهم دمروا أو خربوا شيئا منها، فمن العجب

أن ينقلب حالهم بعد عبورهم إلى فرنسا فيتحولوا إلى همج مخربين، إنه لزعم باطل لا يدفعه إلا حقد دفين.

وأما الأمر الثاني: فيتعلق بأحوال المسلمين في الأندلس، وكيف أثرت فرقتهم واختلافهم على هذه الفتوح فتسببت في توقفها، إن المسلمين لن ينتصروا ولن يظهروا على عدوِّهم إلا بالاتحاد والتآزر والتعاون، والتاريخ أمامنا كتاب مفتوح فهل نقرأ فيه؟ بل هل نتعظ بعد القراءة؟ لقد كانت فتوح ترتفع لها هامات المسلمين عزًّا وكبرياء، حركها إيمان بالله، وتمسُّك بشرعه وتطبيق لمنهجه في الحياة، فكان عاقبتها النصر والتمكين في الأرض. وهذه سنة الله سبحانه وتعالى أوضحها في كتابه المجيد.

المصادر والمراجع:

١ ـ المقري: نفح الطيب جـ ١.

٢ ـ حسين مؤنس: فجر الأندلس.

٣ ـ أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس.

٤ ـ إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوروبا.

معركة بلاط الشهداء
سنة ١١٤ هـ

حـدثت هذه المعـركة في شهـر رمضان الكـريم من سنة أربع عشرة ومـائة في مكان أطلق عليه المسلمون اسم بلاط الشهداء يقع شمال بواتييه جنوبي فرنسا .

ذلك أن المسلمين قد استطاعوا فتح مناطق واسعـة من فرنسا فأخضعوا إقليم غالة واستولوا على الكثير من مدنه ، . وجعلوا لهم قاعدة في سبتمانية هي أربونة ، وأخذ ولاة الأندلس يتعاقبون الفتوحَ شمالاً حتـى تولى عبد الرحمن الغافقي ـ رحمه الله ـ سنة اثنتي عشرة ومائة من الهجرة .

ويمكننـا القول إن عبـد الرحمن هـو أقدر قـائد عسكري عـرفته الأنـدلس في عصر الولاة ومع قلـة الأخبار التي وصلت إلينـا عنه إلا أننـا نستشف منها عظم تقدير المؤرخين له وثناءهم عليه .

عاش عبد الرحمن بداية حياتـه جنديًّا مجاهدًا في جيش المسلمين جنوب فرنسا ثم اجتمع عليه المسلمون فأصبح واليا للأندلس ، لكن هذه الولاية لم تشغله عن أمر الجهـاد ، ويذكـر المؤرخون أن هذا القـائد كان مسلمًا سليم الإيمان حـريصًا على أصـول الشريعـة ، لا يحفل في سبيل ذلك بغضب الآخـرين ، ويـروي ابن عبد الحكم ـــ رحمه الله ـ أن عبـد الرحمن سمع بغضب والي أفـريقية عليـه نتيجة توزيعه الغنائم النفيسة وإخراج خمسها ، بل إنه تسلم منه خطاب تهديد ووعيد . فـرد عليه عبـد الـرحمن يقول : «إن السمـوات والأرض لـو كـانتا رتقـا لجعل الله للمتقين منها مخرجا» .

وإلى جانب ذلك تتحـدث المصادر النصرانية عن شجـاعته النادرة ومقـدرته الحربيـة العظيمـة وهكـذا اجتمعت في هـذا القـائد المسلم مـؤهـلات القيـادة العسكريـة إلى جانب التـدين وحب الجهـاد ، فكان بـذلك مثلاً يحتـذى وقدوة صالحة للمسلمين على مر الزمان .

وانطلق عبد الـرحمن للجهاد وعبر جبال البرانس متجها إلى وسط أوربـا وكان يقـود عددًا كبيرًا من المجـاهدين قـدَّرته المصـادر الإسلاميـة بما يتراوح بين سبعين ومائة ألف في حين تقـدره المصادر النصرانية بـأربعمائة ألف مقاتل، ومهما يكن العدد فإن هـؤلاء المجاهـدين كانوا صـادقي العزم على فتح البـلاد ونشر الإسلام فيها .

وبدأ المسلمون بمدينـة آرل فاستولوا عليها ، ثم هاجموا دوقية أقطـانية فهزموا الـدوق هزيمـة قاسيـة وتقهقر أمـام الزحف الإسـلامي، وانساق المسلمـون في البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم حتى وصلوا إلى مدينة تور فاستولوا عليها ممـا دفع الدوق أودو لـلاستنجـاد بشارل مـارتل واتحد معـه وبذا اتحدت القـوى النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين .

ورحب شارل مـارتل بهذا العرض وبـدأ يجمع الجنود من كل مكـان حتى من خارج حـدود غالـة، واجتمع له جيش عظيم أكثـر أفراده من الجنـود الأجلاف الأقوياء الـذين يحاربون شبه عراة في ذلك الجو البارد، وسـار بهم لمقابلة الجيش الإسـلامي رافعًا شعـار إنقاذ أوروبـا من المسلمين بنفس مشرئبـة للظفر وجنـود متطلعة للقتال . وعنـد بواتييه التقى الجيشان، وهنا تصمت المصـادر الإسلامية فلا تورد لنـا أية معلومات سوى خبر هزيمـة المسلمين وقتل قائدهم وعدد كبير منهم .

والحقيقة أن ذلك لا يعلل إلا بشـدة وقع الهزيمة حتى أن الرواة الأوائل كـانوا ينفـرون حتى من مجرد ذكـرهـا من فـرط الحزن والألم، فـاندرجت هـذه المعـركـة وأخبارها في مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأزمان ولم يبق إلا هذه المعلومات .

ومن هنا فلا مندوحة من الرجوع إلى المصادر النصرانية لتتبع المعركة :

ظل الجيشـان فترة من الـزمن لا يتقـاتـلان لإحسـاس الجميع بخطـورة هـذه المعركـة، ثم التحم الجند وثبت المسلمـون ثباتًا أدهش النصـارى حتى كادوا أن ينهـزمـوا، إلا أن فـرقـة من النصـارى اخترقـت الجيش الإسـلامي ووصلت إلى مؤخرته حيث الغنائم، وحينما علم المسلمون بذلك التفوا إلى الخلف مما أحدث اضطرابًـا في صفوفهم، وحـاول عبد الـرحمن ـ رحمه الله ـــ جهده أن يثبت جنده

ويعيد إليهم النظام فلم يوفَّق، بل أصابه سهم واستشهد نتيجة لذلك، وصبر المسلمون إلى حين الليل فانتهزوا فرصة الظلام وتراجعوا جنوبًا مسرعين،

والواقع أن الدلائل تشير إلى أن الهزيمة كانت مروعة حقا، فتسمية المعركة ببلاط الشهداء يفهم منه كثرة من استشهد من المسلمين، وذلك الصمت الغريب الذي تسدله المصادر الإسلامية على الموقعة، بل إن بعض المؤرخين المسلمين يشير إلى أنه لم ينج من المسلمين أحد، وأن الأذان ظل يسمع في ذلك المكان إلى عصره كرامة لأولئك الشهداء.

ولو حاولنا تحليل عوامل الهزيمة في هذه المعركة لوجدنا أن على رأسها الاهتمام بالغنائم التي كانت مع المسلمين، بمعنى أن الأهداف السامية للمسلمين قد انحرفت، وهكذا حال المسلمين لا بد أن يخلصوا جهادهم لله سبحانه وتعالى ويجعلوا هدفهم نشر دينه. ثم إن خطوط الرجعة والتموين قد طالت على المسلمين، فعلينا أن نتصور المسافة التي تفصل هذا الجيش عن مركز المسلمين في دمشق وهي دار الخلافة إذ ذاك.

كل هذه العوامل ساعدت على إخفاق المسلمين في هذه المعركة، ومهما يكن الأمر فقد سطر أولئك المجاهدون أنصع الصفحات في الجهاد، ودفعوا أرواحهم ثمنًا له فرحمهم الله أجمعين، ولا شك أن الدروس والعبر كما أنها تستفاد من النصر والنجاح كذلك فإنها تستفاد من الهزيمة والإخفاق ليتحاشى المسلمون أسبابها ويبتعدوا عن عواملها.

ولا أجد في النهاية أبلغ مما قاله أحد الغربيين حينما تحدث عن نتائج هذه المعركة فقال: «إن الحضارة قد تأخرت عدة قرون عن أوروبا نتيجة هزيمة المسلمين عند تور بواتيه».

المراجع:

١ ـ د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ٢٦١ وما بعدها.

٢ ـ د. إبراهيم طرخان: المسلمون في أوروبا ص ١٤٩ وما بعدها.

٣ـ د. عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٩٣ وما بعدها.

فتنة الخرمية

سنة ٢٢١ هـ

عرضنا فيما مضى لمعارك إسلامية عديدة خاضها المسلمون مع أعدائهم من مختلف الملل والنحل، وكانت كلها ضد أعداء من خارج كيان الدولة الإسلامية.

وسنتحدث هنا عن معركة من تلك المعارك التي خاضها المسلمون ضد الأعداء، إلا أنهم في هذه المعركة، أعداء من داخل الدولة الإسلامية بل إنهم يدَّعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهؤلاء الأعداء ربما كانوا أخطر من غيرهم، وأكثر حقدًا وعداء، قد عرفوا المسلمين، وخبروا عوراتهم، وهم دائمًا أعوان لمن هاجم البلاد وأراد شرًا بالعباد، ولم يكن وجودهم جديدًا، وإنما عرفوا منذ ظهر الإسلام، واستمروا بعد ذلك في كلِّ زمان، إلى وقتنا الحاضر.

وهذه الطائفة التي سنتحدث عنها اليوم، ظهرت في عصر الدولة العباسية، وثارت على خلفاء العباسيين، وقد كانت قبل ذلك مستمرة مستخفية، فلما أدرك قادتها قوتهم، وضعف الخلافة ظهروا وبدأوا يهاجمون المسلمين.

إنها طائفة من الباطنية يقال لهم الخُرْمَدِينيةُ أي أنهم يدينون بما يريدون ويشتهون، وهو لفظ فارسي هذا معناه، ولقبت هذه الطائفة بهذا الاسم لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذات المحارم وفعل ما يتلذذون به، يشابهون بذلك طائفة المزدكية الفارسية التي ظهرت قبل الإسلام، وحاربها كسرى أنوشروان مع أنه من المجوس.

ظهرت هذه الطائفة الباطنية في عهد المأمون العباسي وقادها رجل اسمه بَابَكُ ونسب لها فعرف بالخرمي، وذلك سنة إحدى ومائتين واستمرت ثورته إلى عهد المعتصم حيث هزم في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين، فاستمرت عشرين عامًا. ثار بابك الخرمي في شمال فارس (إيران الحالية) في مدينة تعرف

(بالبَذِّ) قرب أذربيجان، وقد ورث زعيم الخرمية في تلك البلاد بوصية منه حيث رأى فيه فهما وخبثا، فأوصى أصحابه باتباعه وزعم لهم أن روحه ستخرج منه لتحل في بابك ثم تزوج بابك من امرأته وتزعّم الخرمية. وفي سنة إحدى ومائتين هجرية بدأ في العبث والفساد، وأراد أن يقيم ملَّة المجوس، ومع هذا فقد كان بطلاً شجاعًا جبارًا عنيدًا.

وبدأ الخليفة العباسي المأمون يرسل الجيوش لحربه ولكنه يهزمها، وكلما أرسل قائدًا هزم، أو قتل أو أسر، وذلك لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه، وأدى ذلك إلى دخول جماعات كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان، وماسبذان في دين الخرمية، فتقوى بهذه الجموع، وعظم خطره، وزاد عبثه وفساده.

ومات المأمون، وفتنة الخرمية في أوج تأجُّجها، وكتب في وصيته لأخيه المعتصم يقول: «والخرمية: فأغزِهم ذا حرمة وصرامة وجَلَد، واكنُفه بالأموال والجنود، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه».

وتولى المعتصم الخلافة وبذل جهده في كسر شوكة بابك، خشية أن يمتد شرُّه في بقية بلاد فارس، واختار لحربه قائدًا تركيًّا من كبار قوّاده هو «خيدر بن كاوس الأشرسني» المعروف بالأفشين، وسيّر أمامه قائدًا آخر أمره أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين أَرْدَبيل وبَرْزَنْد وكلها في أذربيجان، فبناها وجعل فيها الرجال لحفظ الطريق، كما أنه التقى بسرية لبابك فقاتلها وهزمها فقتل عددًا منهم وأسر آخرين وسيرهم إلى المعتصم في بغداد فارتفعت معنويات المسلمين.

ووصل جيش الخلافة بقيادة الأفشين وعسكر في بَرْزَنْد، وبدأت الحرب بين الجانبين وبدأ الأفشين يحقق الانتصارات على الخرمية، واستمرت الحروب مدة طويلة حتى إذا كان شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين. سار

الأفشين من مكانه عازمًا على فتح البذّ وهو مقر بابك، ورتب أموره ترتيبا دقيقًا، ووزع جنده واستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما، ولكن الله نصر جند الخلافة فانهزم بابك واقتحم المسلمون مدينته، فأراد الهرب إلا أن الأفشين سد عليه المسالك وأوقف جنده عليها، فاستطاع القبض عليه مع نفرٍ من أهله، وعاد بهم إلى سامُراء، فكان يوم دخولهم يومًا مشهودًا، فرح المسلمون فيه فرحًا عظيمًا بعد أن أخزى الله بابك وهزم أعوانه، وفي سامُراء ـ عاصمة الخلافة آنذاك ـ قُتل بابك وصُلب ليراه الناس فيفرحوا بهذا النصر العظيم في شهر رمضان.

لقد كانت فتنة عظيمة كادت أن تهلك المسلمين وتقضي على الإسلام في تلك المناطق، لولا عناية الله سبحانه وتعالى، كما أن هؤلاء الأعداء قد حرّضوا النصارى في الدولة البيزنطية لمهاجمة العالم الإسلامي، وحصل ذلك فدُمِّرتْ ثغور المسلمين، مما دفع المعتصم إلى الخروج مجاهدًا لتأديبهم.

واستنفدت هذه الفتنة الكثير من قوة الدولة ورجالها وأموالها، لقد قتل بابك عددًا من قواد المسلمين، أما عامة المسلمين فقتل منهم خلالها مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان (أي ربع مليون مسلم). أما الأسرى فقد استُنقذ من أسره سبعة آلاف وستمائة إنسان، ووجدوا عنده عددًا كبيرًا من النساء والصبيان ذكروا أن بابك قد أخذهم وأنهم أحرار وبعضهم عرب فجعلهم الأفشين في مكان متسع، وأمرهم بالكتابة لأوليائهم، فكلُّ من عرف امرأة أو صبيا أو جارية وشهد له أخذه، وعاد كثير منهم إلى أهلهم.

أما الخسائر المادية فيكفي أن نعرف أن المعتصم قد بعث لجيشه في مرة واحدة ثلاثين ألف ألف درهم (أي ثلاثين مليون درهم). وقد تكرّر ذلك مرارًا.

ومهما تكن الخسائر فلا شك أن النتائج عظيمة جدًّا، ولنا أن نتصور انتصار هذه الحركة الخبيثة وأثرها في المسلمين، حيث سيفرض أتباعها مذهبهم الفاسد ويلزمون الناس باتباعه. فلله الحمد وله المنة على هذه الانتصارات العظيمة التي

حفظ بها دينه وأعزَّ بها جنده .

ولقد أكـرم الخليفة قـائده الأفشين بعد هـذا النصر العظيم ، وكتب له بـولاية السند . كما أن الشعراء مدحوه يتقدمهم أبو تمام الطائي الذي قال فيه :

بـــذَّ الجلادُ البـــذَّ فهـــو دفين ... مـــا إنْ بها إلا الـــوحـــوش قطين

لم يُقْرَ هـذا السيفُ هـذا الصبرَ في ... هيجـــاء إلا عـــزَّ هـــذا الـــدين

قـد كـان عُـذرة سُـودَدٍ فـافتضّهـا ... بـــالسيـف فحلُ المشرق الأفشينُ

فأعـادهـا تعوي الثعـالب وسطهـا ... ولقـد تُـرى بـالأمـسِ وهي عـرين

هطلت عليهـا من جماجمِ أهلهـا ... ديـم إمـــارتها طلى وشـــؤون

كـــانت من المهجـات قبلُ مفـازةٍ ... عُسرًا فأضحـت وهي منـــه معينُ

المصادر:

١ ـ الطبري جـ ١٠ ص ٢٢٢ وما بعدها .

٢ ـ ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٣٩ وما بعدها .

٣ ـ ابن كثير جـ ١٠ ص ٢٨٣ .

فتح عمورية
سنة ٢٢٣ هـ

وقع في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله محمد فتنة عظيمة كادت أن تودي بالخلافة الإسلامية وقادها بابك الخُرَميّ في شرق العالم الإسلامي، ولكن الله أعان المعتصم فأخمدها وأسر قائدها وقتله.

وكان من نتائج هذه الفتنة أن اتصل قادتها وعلى رأسهم بابك بإمبراطور الروم يستحثونه ويطلبون منه مهاجمة الخلافة الإسلامية التي انشغلت بقتالهم، وكان مما قالوه له: إن المعتصم لم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك.

واستجاب ملك الروم توفيل لاستغاثة بابك وجهز جيشًا يزيد على مائة ألف وسار به إلى بلاد الإسلام فهاجم المدن والقرى يقتل ويأسر ويمثّل، وكانت مدينة مَلَطْيَةُ من المدن التي خربها الملك توفيل حيث قتل أهلها وأسر نساءها المسلمات حتى أن عددهن بلغ ألف امرأة، وكان يمثل بالمسلمين فيقطع آذانهم وأنوفهم ويسمل أعينهم.

وكان من بين الأسيرات امرأة هاشمية تدعى شراة العلوية استغاثت بالخليفة المعتصم في أسرها ونقل ذلك إليه فلبى استغاثتها.

على أن المسلمين جميعًا في سائر الأمصار قد ضجوا واستغاثوا في المساجد والديار ودخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائمًا قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بالمسلمين ويحضُّه على الانتصار ويحثه على الجهاد ومنها:

يا غارةَ الله قد عاينت فانتهكي هتكَ النساء وما منهن يرتكبُ
هب الرجال على أجرامها قُتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

فخرج المعتصم من فوره نافرًا، عليه دراعةٌ من صوف بيضاء، وقد تعمم بعمامة الغزاة وعسكر غربي دجلة، وأرسل طائفة من الأمراء ومعهم جيش كبير

إعانـة عاجلة للمسلمين، وسـاروا إلى تلك الديار فـوجدوا الروم قـد انسحبوا، حينئذ عادوا للمعتصم رحمه الله.

ولم يكن خليفـة المسلمين ليسكت على مـا حل بـالمسلمين، وكيف يسكت وأصـوات الاستغاثـات لا زالت أصـداؤها تتردد في أذنيـه، وأسرى المسلمين مع الروم. ولذا جمع الأمـراء وسألهم: أي بلاد الروم أمنعُ؟ قالوا: عمـورية لم يعرض لها أحد منـذ كان الإسـلام، وهي عندهم أشرف من القسطنطينيـة، فقال: هي هدفنا.

وبدأ الخليفة يستعـد فاستدعى الجيـوش وتجهز جهازًا لم يجهزه أحـد كان قبله من الخلفـاء، وأخـذ معـه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقـرب والـدواب والنفط والخيل والبغال شيئا لم يسمع بمثله، ولا غرو في ذلك فالهدف عظيم وقد أراد أن يجعلها حاسمـة لا تقوم للروم بعدهـا قائمة، بل إن أهـدافه تعدت مجرد الأخذ بالثأر وتأديب الروم إلى فتح بلادهم كلها وضمها للمسلمين.

وسـار المعتصم في جحافل أمثـال الجبـال، وبعث الأمـراءَ إلى مناطق الثغـور ووصل إلى قـرب طرسـوس، وسمع ملك الـروم بهذا الزحف الإسـلامي العظيم فجهز جيشـه وسار لملاقـاتهم، وتلقَّاه قـائد المعتصم الأفشين بفرقـة من الجيش الإسـلامي فهزمـه شر هزيمـة، وعلم بذلك المعتصم فسُر سرورًا عظيما، وفـرق جيشه ثلاث فرق اتجهت كلها إلى عمورية فحاصرتها.

وعمورية مدينـة عظيمة جدا، ذات سور منيع وأبراج عـالية كبارٍ كثيرة، وقد تحصن أهلها تحصنًا شديدًا، وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، ولكن ذلك كله لم يفتَّ في عضـد المسلمين بل ضيقوا عليهـا الحصار وبـدأوا يرمـونها بالمجـانيق، وبدأت الأسوار تتهاوى من جراء ذلك، وأصـاب اليأس أهلها وبخاصة بعد ما وقع في السور ثغرة كبيرة بدأ المسلمون يدخلون معها.

وتكاثر المسلمون داخل البلد وهم يكبرون ويهللون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلـونهم في كل مكان، ولم يبقَ في المدينة موضع محصن سوى

المكان الذي فيه نائبها منـاطس، وهو حصن منيع، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحـذاء الحصن فناداه المنـادي ويحك يا مناطـس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك، فقالوا: ليس بمنـاطس ههنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس هـذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسلُ إليه وقالوا له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنَّع ثم نزل متقلدًا سيفه، فـوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربـه بالسوط على رأسه ثم أمـر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مُهانًا.

وهكذا فتح المسلمون مدينة عمورية وأخذوا منها أموالاً كثيرة، وأسروا أعدادًا من الروم افتُدي بهم أسرى المسلمين.

وكـان من أهـداف المعتصم أن يستمـر في الجهاد حتى يفتـح عاصمـة الـروم بيزنطة لولا حدوث فتنة في بغداد اضطرته للعودة.

وخلد المؤرخون اسم هذا الخليفة المسلم لما قام به من نجدة المسلمين والدفاع عنهم، كما خلده الشعراء وعلى رأسهم أبو تمام حبيب بن أوسٍ.

المصادر:

١ ـ خليفة بن خياط: تاريخه ص ٤٧٧ تحقيق أكرم ضياء العمري.

٢ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ ١٠ ص ٣٣٤ وما بعدها.

٣ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٤٧.

٤ ـ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٨٦.

فتح حارم
سنة ٥٥٩ هـ

وتتواصل انتصارات المسلمين في هذا الشهر العظيم يقودهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فرسان في النهار عباد في الليل .

ولنقلب صفحات التاريخ ونعود إلى شهر رمضان عام ٥٥٩هـ حينما كان الصليبيون يجثمون على قلب العالم الإسلامي في الشام وفلسطين ، تتواصل إليهم الإمدادات من أوروبا ويقف وراءهم ملوكها وأباطرتها ورجال الدين فيها وعلى رأسهم من يدعونه بالبابا .

في ذلك التاريخ كان المسلمون قد أفاقوا بعد الهزائم المريرة التي تجرعوها ورزقهم الله قادة أبطالاً جعلوا الجهاد همهم وإعلاء كلمة الله هدفهم وتحرير بلاد المسلمين غايتهم ، وكان من هؤلاء الأبطال نور الدين محمود بن زنكي ذلك الشاب اليافع ، الذي تربى في مدرسة الجهاد مع والده عماد الدين زنكي ثم ورث ملك والده في الشام ، وجمع كريم الخصال وجميل الخلال يزينها تدين وعبادة حتى لقد شبهه كثير من المؤرخين بجيل التابعين وقالوا لم يتول بعد عمر ابن عبد العزيز أعدل منه .

كان هذا الحاكم المسلم الشاب يحب العلماء ويقربهم فاكتسب منهم التقوى والورع ورسم لنفسه هدفًا أخذ يعمل لتحقيقه هو في الحقيقة أسمى الأهداف وأعظمها ألا وهو الجهاد في سبيل الله ، لم يركن إلى ملكه ونعمه الزائلة كما يفعل كثير من أترابه الحكام ، بل آثر النعيم الباقي ، وعمل لتحقيقه ، فانقادت له الآمال ، وتحققت له الأهداف .

كانت مصر في ذلك الوقت خاضعة للشيعة العبيديين قد عطلوا دورها في الجهاد فرأى نور الدين أن ضمها للجبهة الإسلامية أمر حتمي لتحقيق النصر فأرسل لهذا الغرض حملة قادها أسد الدين شيركوه الأيوبي ، ولم يكن الصليبيون

ليرضوا بضم مصر إلى الشام وهم يدركون خطورة ذلك على ممالكهم في الشام لذلك أرسلوا قواتهم لمحاصرة أسد الدين قائد الحملة الزنكية وتم لهم ذلك في مصر، وضيقوا عليه الخناق، فطلب العون من نور الدين في الشام، وأدرك نور الدين محمود أن مهاجمة الصليبيين في الشام قد يجعلهم ينسحبون من مصر، فأرسل للبلاد الإسلامية يطلب المجاهدين، واجتمع له جمع غفير سار بهم إلى قلعة حارم، وعلم الفرنج بذلك فجمعوا جيوشهم وساروا للقائه في أعداد عظيمة يقودهم أربعة من ملوكهم المشهورين، والتقى الجمعان في شهر رمضان المبارك ووضع المسلمون الخطط الحربية للقضاء على التفوق العددي للصليبيين ونجحت تلك الخطط ولنترك وصف هذه المعركة لمؤرخ معاصر لها، هو ابن الأثير حيث يقول رحمه الله :

«فحينئذ حَمِيَ الوطيس وباشر الحربَ المرءوسُ والرئيسُ وقاتلوا قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من يئس من الحياة، وانقضت العساكر الإسلامية انقضاض الصقور على بُغاث الطيور فمزقوهم بَددا وجعلوهم قِدَدًا، وألقى الإفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة وكان منهم الملوك الأربعة».

وسار نور الدين فملك حارم في الحادي والعشرين من رمضان عام ٥٥٩هـ.

وهكذا نصره الله على عدوه وملّكه بلاده، فالنصر دائمًا من الله سبحانه وتعالى، يهبه لعباده الصالحين الصادقين. ولننظر إلى سيرة هذا القائد الشجاع الورع قبل المعركة، لقد انفرد تحت تلٍّ، حينما التقى الجمعان وسجد لربه عز وجل، ومرّغ وجهه وتضرّع، وقال: هؤلاء يا رب عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك «ما فُضولُ محمودٍ في الوسط» يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت فلا تمنعهم النصر بسبب محمودٍ ـ يعني نفسَه ـ إن كان غير مستحق للنصر.

منتهى العبودية والخضوع والخشـوع من قائد المسلمين لله عز وجل، ولا شك أن هذه مفاتيح النصر: العبادة والـدعاء والإلحاح في ذلك اقتداءً بسيرة المصطفى ﷺ.

لقد كـانت هذه المعـركة درسًـا عمليًّا للمسلمين على مـر الزمـان لكي يحققوا عوامل النصر كما حققها سلفهم رحمهم الله أجمعين.

المصادر:

١ ـ ابن الأثير: الباهر ص ٢١٩ وما بعدها.

: الكامل جـ٩ ص ٨٦.

٢ ـ أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ و٢ ص ٣٣٩ وما بعدها.

فتح صفد وأخذها من الصليبيين
سنة ٥٨٤ هـ

إن النـاظر في التـاريخ الإسلامي يـدرك أن أمة الإسـلام قد وجـدت لتبقى ما دامت متمسكـة بشريعـة الله لا يضرُّها مـن عاداهـا ، فهي تفيق بعـد كل كبـوة وتنتصر بعد كل هـزيمة ، فالشفاء والعـلاجُ وأسباب النصر وعوامله كلهـا أمور موجودة متيسرة في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

ولنعد بـالذاكرة قرونًـا طويلةً حينما هاجمت أوروبـا بجحافلها وفرسـانها بلاد الإسـلام في هجمـة صليبية لم يسبق لها مثيـل في تاريخ الإنسـانيـة فأصـابت في المسلمين ضعفا استفـادت منه ، واستولى الفـرنج الصليبيون على منـاطق واسعة في قلب العـالم الإسـلامي ، وتأسست ممـالك نصرانيـة ، ولكن سرعان مـا أفـاق المسلمون وتحرك العلماء والخطباء يدعـون إلى الجهاد فاستيقظت العقيدة وتحركت في النفوس ، وأخـذ المسلمون يهاجمون تلك الممالك ويستعيـدون بلاد المسلمين ، ويطردون فلول النصـارى . وهذه سمة وميزة في أمـة الإسلام حينما تُحرك العقيدةُ ويتـاح لها المجـالُ لـلانطلاق تظهـر البطـولات التي تشبـه المعجـزات وينقلب الضعف قوة والهزيمة نصرًا وتمكينًا .

لقد أخرجت لنـا هذه الأمة في تلك الفترة ـ فترة الجهاد ضـد الصليبيين ـ قادة أبطـالاً انطلقوا بـالمجاهـدين يقودونهم من نصر إلى نصر ويحررون المدن والقـرى ويطهرونها من رجس الصليبيين .

وتسلَّم راية الجهاد قاهر الصليبيين ومحرر بيت المقدس صلاح الدين بن أيوب ـ رحمه الله ـ فجعل كل همِّه الجهاد في سبيل الله ، وسخـر طاقاتـه وكل ما يملك لهذا الغـرض ، وتخلص من الدنيـا وزخـارفها ، وأصبح عصره بحقٍّ عصرَ جهـادٍ وعلم . اقتـدى به جنده وأمـراؤه وقادة دولتـه ، بل أصبح شعبـه في مصر والشام والحجاز لا شغل له ولا حديث إلا عـن الجهاد وفي الجهاد ، فحقق الانتصارات

وكان أعظمها يوم حطين حينما كسرت الصلبـان ونكست، وهزم الصليبيون شر هزيمة، ثم كان فتح القدس العظيم حينما طُهرت مساجد المسلمين وعلى رأسها المسجـد الأقصى من دنس الصليبيين المعتـدين، وهكـذا استمـر يفتح ويحرر حتى إذا كان في شهـر رمضان عـام ٥٨٤هـ جاء دور مـدينة صَفَـد تلك المدينة الحصينـة التي هي أشبـه بـالقلعـة العظيمـة تحيط بها الأوديـة من جميع الجوانب فتزيدها حصانة وتضفي عليها مزيدا من الحماية.

وإذا كان الناس يحبذون الاجتماع بالأهل والأحبـاب في رمضان فقد حبذ هذا القائد الشجاع أن يجتمع في ميدان المعركة مع السيف والدرع في وجه العدو وهو صائم لله قائم له مجاهد في سبيله.

ولنترك الحديث عن هذه المعـركة لواحـد شارك فيها وروى خبرهـا وهو المؤرخ ابن شـدَّاد: يقول: «كنت عنـد صـلاح الدين في خـدمتـه وقد عين في إحـدى الليالي مواضع خمسـة مناجيق حتى تُنصب في تلك الليلة، فقـال: ما نام حتى تُنصب الخمسة، وسلَّم كلَّ منجنيق إلى قـوم وأخذ يتابع أخبـارهم ويمر عليهم حتى تم ذلك» يقـول ابن شـداد: فذكّـرتـه بحـديث رسول الله ﷺ المشهـور في الصحاح وبشرتـه بمقتضاه وهـو قولـه عليه الصـلاة والسلام «عينـان لا تمسُّهما النار: عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله»

وهكذا حال العلماء الصالحين يذكـرون ويعظون، وما نجح صلاح الدين إلا بمثل هذا العالم الفقيه والجليس الصالح.

واستمر القتال على مـدينة (صَفَد) متواصـلاً والمسلمون صائمون طيلـة شهر رمضان حتَّى إذا كان الـرابع من شوال سلِّمت بالأمان واستعـادها المسلمون من الفرنج النصارى، وحقق صلاح الدين في هـذا الشهر الكريم نصرًا آخر يضاف إلى انتصاراتـه السابقة، فرحمه الله وأجـزل له الأجر والمثوبـة لقاء ما قدم لـلإسلام والمسلمين.

المصادر:

١ ـ بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المشهور بسيرة صلاح الدين ص ٩٥ تحقيق جمال الدين الشيال الطبعة الأولى.

٢ ـ العماد الأصفهـاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٢٣، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢هــ، المطبعة الخيرية، مصر.

«معركة عين جالوت»
سنة ٦٥٨ هـ

تعـرض العالم الإسـلامي في النصف الأول من القرن السـابع الهجري لهجمـة وثنية شرسة، قام بها المغول الـوثنيون بتحريض من النصارى الصليبيين. وكانت حالة العـالم الإسلامي في ذلك العصر سيئة جدًّا، فعلى الـرغم من وجود الخلافة العباسيـة في بغداد إلا أنها كانت جسـدًا بلا روح، فلا سلطة لها ولا هيبـة، وقد تفكك العالم الإسلامـي إلى دويلات وإمارات لا يربطها رابط، فـالكل مشغول بتثبيت حكمه أو إمارته، كما أن المجتمع الإسلامي قد أصابه الفساد وتفشت فيه الأمـراض الخلقية، وبَعُـد النـاس عن تعاليـم الإسلام، وخبت روح الجهـاد في النفوس، فكـان ذلك كله عاملاً مسـاعدًا سهَّل على المغول مهمة اجتيـاح بلاد المسلمين.

انطلق المغـول من الصين شرقًـا، متجهين نحـو الممالك الإسـلاميـة غـربًـا واصطدموا بالدولة الخوارزمية، فأسقطـوها، ثم أخذت المدن الإسلامية تتهاوى في أيـديهم الـواحـدة تلـو الأخـرى، فسقطت أتـرار، وبخـارى، وسمـرقنـد، وجرجانية، ووصلوا إلى العراق، واحتلوا مـدنه وقراه، ثم هجموا على بغداد مركز الخلافـة ومقر الخليفـة وحاصروهـا أيـاما قليلـة، فسلمت لهم بلا عنـاء، وأسر الخليفـة العبـاسي وقتل، كما قتل من المسلمين أعـداد كبيرة جدًّا قـدرهـا بعض المؤخرين بثمانمائة ألف إنسان.

وكانـت المرحلة الثـانية هي بـلاد الشام، فسار إليهـا المغول، واحتلـوا حلب وحماة وسلمت لهم دمشق بلا قتال وأصبح الدور على مصر والحجاز.

كان المماليك المسلمون يحكمون مصر، وهم طائفة ممن جلب إلى بلاد الإسلام وبيعوا فيها فاعتنقوا الإسلام وكثر عددهم حتى أصبح الأمر في أيديهم، كانوا لا يعرفـون لهم أصلاً ولا موطنًـا إلا الإسلام، وبـلاد الإسلام، فأخلصوا في خـدمة

هذا الدين وتحملوا واجب الدفاع عنه فترة طويلة من الزمن .

تسلّم السلطان المظفر قُطُز الحكم حينما وصل المغول إلى الشام وكان في وضع لا يحسد عليه ، فكان أول شيء يصل إليه تهديد من طاغية المغول هولاكو يطالب بالتسليم والاستسلام ، لئلا يلقى المصير نفسه الذي لقيه الحكام المسلمون السابقون . إلا أن قطز كان لديه من العزة الإسلامية ما منعه من ذلك ، واستشار قومه ماذا يفعل؟ أيرد ردا جميلاً ويرسل الهدايا ويهادن ويلاطفُ ، أم يقف موقفًا حاسمًا ويستعد للمنازلة والصراع؟

كان رأي أغلب الأمراء يميل للمهادنة ، إلا أن قطز توكل على الله سبحانه ووقف موقفًا حاسمًا فإما حياة بعزة ، ونصر للإسلام ، وإما شهادة يفوز بها فيعذر ، وأصدر أمره بقتل رسل المغول والاستعداد للقتال ، وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة .

وسرت في المسلمين روح العزة واشتاقت النفوس للجهاد ، كيف يتجرأ قطز على قتال المغول؟

لقد ترسخ في أذهان المسلمين أنهم لا يهزمون فكسرت هذه القاعدة واهتزت تلك الصورة ، ونادى منادي الجهاد أن حي على الجنة ، حي على الشهادة حي على الفلاح ، وبدأت تجتمع الجموع ، ولكن لا يزال من الأمراء والمماليك من يرى أن الجهاد وقتال المغول محسوم النتيجة ومصيره للهزيمة فآثر الاستسلام ، ولكن إيمان قطز وحماسه وحبه للجهاد دفعه إلى أن يقف خطيبًا ليقول : «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت مال المسلمين وأنتم للجهاد كارهون فإني سائر ، ومن أراد فليتبعني ومن أراد فليتخلف وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين» . نعم إن المجال مجال الجهاد ، فلا سلطان ولا أمر ولا نهي ، لكن العقيدة والإيمان هما المحركان والمؤثران وكان لهذه الكلمات فعل السحر في نفوس المماليك فتدافعوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد ، وأراد قطز أن يهاجم المغول وألا ينتظر حتى يهاجموه فخرج من مصر بجيشه وسار إلى سهل قرب عين جالوت في

شرق فلسطين وكان الظاهر بيبرس قد سار في المقدمة، فالتقى بمقدمة جيش المغول فهزمهم شرّ هزيمة، فكان ذلك بشرى للنصر العظيم، وعسكر المسلمون إزاء جيش المغول، وفي الساعة المحددة التحم الجيشان جيش قوي منتصر ومندفع وجيش ينتمي لأمة منهزمة مكلومة، ولكن عزة الإسلام وأثر العقيدة قد تحركت في النفوس فتغلبت على عوامل الضعف، وطبق المسلمون خطة حربية محكمة، استعملوا فيها الخدعة وأوقعوا بالمغول، وأبلى المماليك بلاءً حسنا، وكان قطز يحمسهم ويصيح وا إسلاماه وا إسلاماه ويسجد لله ويعفر وجهه في التراب، ويدعوه ويقول يا الله انصر عبدك قطز، واستجاب الله لهذا الدعاء، وأنزل نصره على المسلمين، وهزم المغول لأول مرة أمام المسلمين، ووقعوا بين قتيل وأسير، وأسر قائدهم ثم قتل، وكان ذلك في شهر رمضان من عام ٦٥٨هـ لقد تمخضت هذه المعركة عن نتائج حاسمة على الأمة الإسلامية، بل على العالم أجمع فلقد طُهرت أكثر بلاد المسلمين من المغول، وأصبح المسلمون في موقع المنتصر المؤثر فبدأ دخول المغول في الإسلام، وأوقفت هذه المعركة المد الغربي الذي كان يستهدف بقية بلاد المسلمين ومن ثم العالم أجمع.

وهكذا سجل هذا القائد المسلم (المظفر قطز) نصرًا للأمة الإسلامية وانتشلها من الضعف والانهيار إلى القوة والنصر وكان ما يزال شابا يافعا؛ ليضرب بذلك مثلاً لشباب المسلمين ولأمة الإسلام أن النصردائماً معهم إن هم وفوا بشروطه وأهمها الالتفاف حول عقيدة الإسلام.

المصادر:

١ ـ الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ ٣ ص ٢٨٨، وما بعدها تحقيق محمد زغلول.

دول الإسلام جـ ٢ ص ١٦٣ تحقيق: محمد فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة.

٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٠.

٣ ـ المقريزي: السلوك جـ ١ ق٢ ص ٤٢٧.

٤ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة جـ ٧ ص ٧٨ ومابعدها طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب.

فتح أنطاكية
سنة ٦٦٦ هـ

وهذه معركـة من معارك المسلمين ضد الصليبيين أما الزمـان فهو رمضان من سنة ست وستين وستمائة، وأمـا المكان فهو الشـام وبالتحديـد مدينة أنطـاكية، وأما القائد فهـو السلطان المسلم والقائد المظفر قاهر المغـول والصليبيين الظاهرُ بيبرس رحمه الله.

تـولى هذا القـائد المسلم الحكم في دولة المماليك بُعَيْـد معركـة عين جالـوت، وأبدى من الأعمال والإصلاحـات ما جعل المؤرخين يعدونه بحق مـؤسس الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز.

والواقع أن الظـاهر بيبرس قاد أمة الإسلام وحقـق الله النصر لها على يديه على عـدوين قـويين تحالفـا من أجل القضـاء على هذه الأمـة ودينهـا، وهما المغـول الوثنيـون في الشرق، والصليبيون النصارى في الغـرب. فالمغول في الشرق أقـاموا لهم دولة في فارس والعراق، وأصبحـوا يتحينون الفرص للثأر من المسلمين الذين سحقوهم في معركة عين جالوت، كما تحدثنا عن ذلك، فيما مضى.

أما النصارى فعلى الرغم من الهزائم التي أنـزلها بهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله فلا زالت الإمـدادات تصلهم تباعًا من الدول الأوروبيـة فتتقوى بها إماراتهم الثلاث في قلب العالم الإسلامي.

وهكـذا وجد سلطـان المسلمين آنذاك أنـه محصـور بين هاتين القـوتين، ومع ذلك لم يضعف ولم يستسلم، ولكنه عزم على الجهاد، هيأ دولته وشعبه لهذا الأمر العظيم، واتخذ الأسبـاب المعينـة على هـزيمة الأعـداء، ووضع لنفسـه منهجـا وأسلوبًا عسكريًّا فريـدًا، قوامه الصرامة في التعامل مع الأعداء، ووضع الخطط الحربية المناسبة، والسرية التامة في كل تحركـاته ووجهاته حتى مع جنده وقادته، وحقق بتوفيق الله انتصارات حاسمة على المغول وعلى الصليبيين، فتهاوت أمامه

المدن والقـلاع وطهَّـرهـا مـن رجس الصليبيين ، وفي رمضـان سنـة ست وستين وستمائة كان الموعد مع أنطاكية .

وأنطاكية عاصمة الإمارة الصليبية التي تحمل اسمها ، وهي واحدة من ثلاث إمـارات صليبية ظلَّت بـاقيـة في العالم الإسـلامي إلى ذلك الـوقت ، حيث أزالها المماليك بعد ذلك .

سـار السلطان بيبرس بجيشـه نحو أنطـاكيـة مارًّا بمـدن الشام ، حيث أمـرَ بإبطال الخمور والمنكرات ، وأمر ببناء مسجد في حمص ، وهكذا كان معظم قادة المسلمين يقـدمـون الأعمال الصـالحة قبل جهـادهم ، ويطهـرون بـلادهم من المعاصي والمنكرات لعلمهم أن ذلك هو الطريق إلى النصر المظفر بإذن الله .

وما خُذِلَ المسلمون وما هُزموا إلا بما قـدمته أيديهم ، ولذا كانت وصية خلفاء رسـول الله ﷺ لقـادتهم هي اجتنـاب المعـاصي والبعـد عن الآثـام لأنها سبب الهزائم .

وصلت الجيوش الإسلامية إلى أنطاكيـة ، وأحاطت بها من كل جانب ، وكان ذلك في يوم جمعة مـن أيام رمضان المبارك ، فكان ذلك شرف زمـاني عظيم تُرَجَّى فيه إجابة الدعوات ، وأرسل المسلمـون للنصارى يطلبون منهم الاستسلام حفظًا لأرواحهم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، وفي يوم السبت زحفت العسـاكر الإسلامية وأطـافت بـالمدينة والقلعـة على اتسـاعها ، وقـاتل أهلهـا قتـالاً شـديدًا فتسـور المسلمون الأسوار من جهة الجبل ، ونزلـوا المدينة فهرب أهلها إلى القلعة ، وتسلم المسلمون المدينة ، فقتلـوا من قاتلهم ، وأسروا الباقي ، وكان في هـذه المدينة مائة ألف من الصليبيين من المحاربين .

وأمـا القلعـة فقـد اجتمع فيهـا ثمانيـة آلاف من المقـاتلـة الأشـداء ، غير أنَّ المسلمين ضيَّقـوا عليهم فطلبـوا التسليم في يـوم الأحـد ، على أن لا يقتلـوا فاستجاب لهم المسلمون وصعد السلطان الظاهر بيرس ـ رحمه الله تعالى ـ وتسلَّم القلعة وعفا عن كل من فيها .

وكُتِبَت كتب البشائر لأنحاء العالم الإسلامي بهذا النصر العظيم، والفتح الكبير وسقطت بذلك إمارة أنطاكية الصليبية، فكان ذلك إيذانًا بزوال الإمارات الصليبية كلِّها.

وكان ملك أنطاكية خارجها فسلم لأجل ذلك، وأرسل له السلطان بيبرس كتابًا يخبره بهذا الفتح ويصف له الوقعة ويدعوه إلى الاستسلام وهذه مقتطفات منه:

«وفتحناها بالسيف من يوم السبت من رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها، والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالتك وهم صراعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنهابة فيها تصول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وإماءك فكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق لكنت تقول: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ واستنزلنا أصحابك من الصياصي، وأخذناهم بالنَّواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان، إلا النهر فلو استطاع لما تسمى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندمًا».

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين، واستعادوا منهم منطقة من مناطق العالم الإسلامي التي احتلوها قبل عشرات السنين، ومع ذلك لم ييأس المسلمون ولم يقنطوا وعملوا أسباب النصر فوهب الله لهم ذلك.

المصادر:

١ ـ محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٠٧ وما بعدها، تحقيق عبد العزيز الخويطر.

٢ ـ المقريزي: السلوك جـ١ ق ٢ ص ٥٦٧ وما بعدها.

فتح أرمينيا الصغرى

سنة ٦٧٣ هـ

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون على النصارى الأرمن في شهر رمضان من سنة ثلاث وسبعين وستمائة هجرية .

وأما مكان هذا النصر فهو الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط .

والحقيقة أن هذه المنطقة التي أطلق عليها المسلمون اسم الدرب تمثل الحدود المتاخمة لبلاد الروم ، ولذا اهتم بها المسلمون منذ وقت مبكر نظرًا لموقعها الاستراتيجي على أبواب دولة الروم ، وأصبحت مدنُها ومراكزُها ثغورًا من أهم الثغور الإسلامية وأكثرها خطرًا ، فشحنها الخلفاء المسلمون بالرجال والسلاح ، وجعلوا منها مراكز حصينة للدفاع عن أراضي المسلمين ، وأصبحت تعرف بثغور الشام . واشتهر من هذه الثغور مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، والخلفاء مهتمون بأمرها ولا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد .

وبعد قرون من القوة والمنعة ، أصاب هذه الثغور الضعف نتيجة عدم الاهتمام بها ، واستغل الروم ذلك فهاجموها واستولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت خرجت تلك الثغور من يد المسلمين وعادت للروم ، ثم بدأت أعداد من النصارى الأرمن يستقرون فيها واستطاعوا تشكيل كيان ثابت لهم في تلك البقاع سرعان ما تحول إلى دويلة صليبية في شمال العالم الإسلامي .

وحينما جاءت الحملات الصليبية إلى العالم الإسلامي فرح بها هؤلاء الأرمن وقدَّموا لرجالها كلَّ المساعدة ، وأعانوهم على المسلمين ، ودلّوهم على عوراتهم ، بل إن الأرمن اشتركوا بصورة مباشرة في الحرب ضدَّ المسلمين ، وكانوا عليهم أشدَّ من نصارى أوروبا وأعنف ، ولا عجب فملة الكفر واحدة .

ولم يكتف الأرمن بذلك بل كان لهم أثر كبير في تشجيع المغول الوثنيين

ودعـوتهم لمهـاجمة المسلمين ، وعقـد ملوك أرمينيـا الصغـرى تحالفًـا معهـم ضـد المسلمين . ولما جاءت الجيـوش المغوليـة ، واكتسحت العالم الإسـلامي انضمت جموع النصـارى من الأرمن وغيرهـم معهم ، وكـانـوا لا يقلـون عنفًـا وقسـوة في تعـاملهم مع المسلمين . وهذا هـو الذي جعل المسلمين يعـدّون الأرمن «أخبث عدو للمسلمين» كما يقول أحد المؤرخين .

ولكن وكما أشرنـا إليه في الصفحـات السابقـة فإن الأمة الإسـلامية كـانت لا تستكين للهزيمـة ، ولا تستسلم للذُلّ ، وهذا هـو ما يـريده الله سبحانـه وتعالى لها ، أمة مستعلية بدينها منتصرة بعقيدتها ، مستمدة أسباب ذلك منه عز وجل .

وبعد أن أفـاقت الأمة الإسلاميـة من هول الاكتسـاح المغولي بدأ حكـامها في العمل على تقـويتها ، وأدركوا مـدى الخطر العظيـم الذي يمثله نصـارى الأرمن على حدود الدولة الشمالية ، فخططوا لإخضاعهم وكسر شوكتهم ، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس» .

وهذا الحاكم المسلم واحـد من أعظم قادة الأمة الإسلاميـة في التاريخ ، حقق الله على يديه لأمة الإسـلام انتصـارات عظيمة على المغـول والصليبيين . ووضـع ـ رحمه الله ـــ مملكة أرمينيا الصغـرى نصب عينيه ، وانتهـز فرصة هـدوء الأوضاع على جبهات القتـال مع المغول والصليبيين ، فكـون جيشا عظيما هدفُـه استعادة أملاك المسلمين التي استـولى عليها نصـارى الأرمن ، ولكنه أسرَّ ذلك ولم يطلع عليه أحـدًا من قادتـه ، وسار الجيش الإسـلاميُّ من مصر قاصـدًا الشام ثـم اتجه شمالاً إلى بـلاد الثغـور وكـان بيبرس على رأس الجيش ووصلـوا إلى تلك المنـاطق ولنترك وصف مسير هذا الجيش لمؤرخ معـاصر لهذه الحملة هو ابن عبد الظـاهر حيث يقول : «ووصل الجيش النهـرَ الأسودَ ، وقطعته العساكـر بمشقة ، ووقف السلطان حتى عدَّى بـأكثر الناس ، وفرق الأمراء بجيـوشهم كلٌّ واحد منهم إلى جهة ، فطلعوا الجبال وما سأل أحد عن طريق ، ولا بالى بمضيق ، ومروا وعليهم جبال من الحديـد لامعة ، وسنابك الخيل تتلوى على الجبـال ، والأرض ترج رجًّا

والجبال تبسُّ بسا وتغدو هباء منبثا» .

وتساقطت مدن الثغـور الواحدة تلو الأخـرى في يد المسلمين ، وكان ذلك في شهر رمضان . وعيد السلطان بيبرس ـ رحمـه الله ـ في مدينة «سيس» وهي كرسيُّ المملكة الأرمينيـة ، واستولى على قصر الملك ، واتجهت فرقـة من الجيش المملوكي إلى مدينة «إياس» وهي ميناء أرمينية على البحـر الأبيض فاستولت عليها ، وفرت مجموعـة من الأرمن والفرنج عبر البحر فغـرقوا فيه وهكذا لم يكمُل شهـر رمضان إلا والجيوش الإسلاميـة قد أتمت استعادة بلاد الثغـر ، واستحق السلطان بيبرس أن يوصف بقاهر الصليبيين والمغول . ولا غرو في ذلك فهو تلميذ صلاح الدين ـ رحمه الله ـ سار على منهجه ، واتبع خطـاه في الجهاد ، فحقق الله على يديه النصر العظيم ، وكان ذلك بعـد عملٍ دءوب وكفاح مستمـر وتحقيق لعوامل النصر كما أوضحهـا القرآن الكـريم ، فالنصر دائماً مع المسلمين إن هـم صـدقوا الله وطبقـوا شرعه وعملوا بمقتضاه .

وتغنى الشعراء بهذا النصر العظيم وخلدوه في شعرهم ، يقول أحدهم :

أي يـــوم بنصره قـــد حُبينـــا ... وبـــه اللهُ قـــد أقـــرَّ العيـــونـــا

يـــومَ جـــزنـــا بـــلاد سيسٍ وقلنـــا ... أيَّ نصرٍ من ربِّنـــا قـــد جُـــزينـــا

إذ تبـــدَّى السلطـــان بين نجـــوم ... من بني الترك يعشقـــون المَنُـــونـــا

إلى أن يقول :

وتـــرامـــت كل البـــلاد وقـــالـــت : ... ليتنـــا مثـل سيس قـــد غُـــزينـــا

ليت جيش السلطـــان وافى إلينـــا ... ليت أنـــا بخيلـــه قـــد وُطينـــا

وصدق هذا الشاعـر فكم من البلاد تتمنى حكـم المسلمين ، وتحنّ إلى عدلهم ورحمتهم .

المصادر:

١ ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٣٢ وما بعدها .

٢ ـ عز الدين محمد بن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ١٠٦ تحقيق أحمد حطيط ١٤٠٣ هـ .

٣ ـ شمـس الـدين محمـد بن أحمد الـذهبي : المختـار من تـاريخ ابن الجـزري ص ٢٧٦ ، تحقيق خضر المنشداوي .

معركة شقحب
سنة ٧٠٢ هـ

إن من الظواهر الواضحة في التاريخ الإسلامي ارتباط حركة الجهاد في سبيل الله بنشاط العلماء وجهودهم، بحيث إنه كلما نشط العلماء والتف حولهم الولاة والأمة كلما كان النصر قريبًا والظفر على الأعداء ممكنا.

وتتجلى هذه الظاهرة في جهاد المسلمين للمغول، فعلى الرغم من قوتهم وشراستهم إلا أن المسلمين استطاعوا إيقاف زحفهم وهزيمتهم في معركة عين جالوت على يد المماليك، ثم مر زمان على المسلمين، ضعفت فيه تلك الصلة أو كثر الخلف بينهم فاستظهر عليهم المغول مرة أخرى وكان ذلك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ففي سنة تسع وتسعين وستمائة هاجم المغول بلاد الشام مرة أخرى بقيادة الطاغية غازان، وكانوا حينئذ قد تظاهروا بالإسلام فتسموا بأسماء المسلمين والإسلام منهم براء، وسقطت مدن الشام في أيديهم الواحدة تلو الأخرى فأشاعوا فيها القتل والدمار والاغتصاب، يساعدهم ويشجعهم طائفة من النصارى الموتورين الذين تولوا كِبَرَ هذه الجرائم، ولا عجب فملة الكفر واحدة ومهما تشتتوا واختلفوا إلا أنهم في عداء هذا الدين متحدين.

وعلى الرغم من نهوض المماليك لصد هذا العدوان إلا أنهم هزموا هزيمة قاسية في معركة الخزندار.

ومن هنا بدأ دور العلماء، ووضح أثرهم يحركهم ويدفعهم عالم فذ وبطل شجاع هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بل إنه ربما وقف وحده في هذا الميدان حينما يتخلف الآخرون، فأصبح هو القائد الذي يلتف حوله المسلمون ضد المغول، ضبط الأمن في دمشق، ونظم الحراسة على أسوارها، وضرب على أيدي المفسدين، ومنع المعاصي من أن تنتشر في المجتمع. ، ثم بعد ذلك كله

انطلق إلى طاغية المغول يجادله ويحاوره ويمنعه من دخول دمشق لكي لا يصيبها ما أصاب أخواتها من مدن الشام، ومن ذا الذي يستطيع أن يجابه الطغاة غير العلماء، ويصف المؤرخون ذلك اللقاء ويروي شاهد العيان حديث ابن تيمية لغازان، ذلك الحديث المفعم بالإيمان الذي جعل بطش الطاغية ينقلب احترامًا وتبجيلاً لهذا العالم، ويطلب غازان من ابن تيمية أن يدعو له فيتوجه بيديه إلى السماء مناجيا ربه بأن ينصره إن نصر الإسلام ويخذله إن خذل الإسلام ويتخوف الحاضرون أن يصيبهم شيء من دم ابن تيمية الذي تطاول على خان المغول ولكنه بالحق ولذا أيده الحق وحقن دمه.

وفي دمشق يعود ـــ رحمه الله ـــ ليستنهض الهمم ويعلن الجهاد، ويصدر الفتاوى بأن المغول مارقون من الإسلام فهم من جنس الخوارج ويصرح بذلك ويقول: لو رأيتموني معهم وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتزول بذلك الشبه، ويخرج إلى جند دمشق يثبتهم ويقوي عزائمهم ويعدهم بالنصر والظفر ويحلف على ذلك فيقولون قل إن شاء الله فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا يتأول قول تعالى: **﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور﴾** [٦٠] سورة الحج.

ولننظر إلى هذا العالم الشجاع كيف يدعو السلطان المملوكي للجهاد ويحثه عليه فقد سار إليه، في القاهرة والتقاه، وقال له: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه، ويستغله في زمن الأمن، ولو قُدّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر فكيف وأنتم حكامه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم»، ثم عاد إلى دمشق يبشرهم بقدوم السلطان ويحثهم على الجهاد ويبين وجوبه وفضائله.

وفي رمضان سنة اثنتين وسبعمائة هاجم المغول بلاد الشام في جيش كثيف، ولكن الأوضاع هذه المرة قد تغيرت، وجهود الشيخ ابن تيمية قد أثرت في الناس فثبتوا أمامهم ودافعوهم وحينما علم السلطان الناصر بذلك خرج على رأس

جيشه ومعـه الخليفة العبـاسي المستكفي بالله ووصل إلى الشـام وصمم المسلمون على الجهاد فإما النصر وإما الشهادة .

وخرج أهل دمشق يقودهم عالمهم الفذ ابن تيمية لابسا سلاحه مع جماعة من العلماء والتقى جيش المماليك في شقحب إحـدى نـواحي دمشق فـاتحد معـه ، ووصل المغـول إلى هذا المكـان واصطف الجيشـان وسـار السلطان والخليفـة بين الصفوف يشجعون الناس ومعهم القراء يقـرأون القرآن ، وكان الخليفة يقول : «يا مجاهدون لا تنظـروا لسلطانكم قاتلـوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ» فبكى الجند وتواصوا على الثبات .

أمـا ابن تيمية فيبشرهم بـالنصر ويأمرهم بـالفطر من الصيـام ليتقووا بـه على القتال . وفي يـوم السبت الثاني من رمضان سنـة اثنتين وسبعمائة التحم الجيشان واستمـر القتال إلى اليـوم الثاني فـانهزم المغول وتم النصر للمسلمين بعـد أن أبلى المسلمون بلاءً حسنًا ، وقتل من المغول عدد كبير وأسر منهم كذلك .

وهكذا كـان النصر ثمرة الجهـاد بعد أن أعـد له المسلمـون واستعدوا معنـويا وماديًّا وحقق الله عز وجل وعده لعباده المؤمنين إن هـم صدقوا .

رحـم الله شيخ الإسـلام ابن تيميـة فقد كـان بحق قـائد المسلمين وبطلهـم في وقعة شقحب .

وكان لهذه المعـركة نتائج مهمة فقـد كشـف الله بهذا النصر عن المسلمين غمة عظيمة ، يقول الذهبي : «فوالله ما ذقنا يوما أحلى منه ولا أمر من الذي قبله» .

المصادر:

١ ـ الذهبي : دول الإسلام جـ ٢ ص ٢٠٨

٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية : جـ ١٤ ص ٢٣

٣ ــ الحافظ عمر بن علي البـزار: الأعلام العليـة في مناقب شيخ الإسـلام ابن تيمية ص ٦٣ تحقيق صـلاح الدين المنجد .

فتح جزيرة قبرص في عهد المماليك
سنة ٨٢٩ هـ

مخرت سفن المسلمين عباب البحار للجهاد ونشر دين الله في كل منطقة يصلون إليها ، كما طوت خيلهم فلوات الأرض حتى وصلت أقصاها .

وكانت جزيرة قبرص ، من المناطق التي فتحها المسلمون منذ عصر مبكر حيث وصلها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٢٨هـ لتكون بعد ذلك خاضعة للمسلمين تدفع لهم الجزية كل عام ، وظلت كذلك مدة من الزمن حتى إذا ضعف المسلمون بعد ذلك طمع فيهم الأعداء من نصارى أوروبا فغزوهم بجيوش جرارة متتابعة وسقطت بعض المناطق الإسلامية في أيديهم ومنها جزيرة قبرص .

والحقيقة أن هذه الجزيرة بموقعها الاستراتيجي شرق البحر الأبيض المتوسط ظلت طيلة الحروب الصليبية قاعدة ينطلق منها الصليبيون لمهاجمة العالم الإسلامي ، وأصبح حكامها أكثر النصارى تعصبًا للحروب الصليبية ورغبة في استمرارها ، ولذا ظلوا يسعون لدى ملوك أوروبا ويطلبون منهم إرسال الحملات العسكرية لتحطيم العالم الإسلامي .

وفي سنة ٧٦٩هـ قاد ملك قبرص حملة صليبية اتجهت نحو الإسكندرية وهاجمها في غفلة من حكامها واستطاع دخولها فأعمل السيفَ في رقاب المسلمين وقتل وأسر ونهب ، وكانت مقتلة عظيمة لم يصب هذا الثغر بمثلها قبل ذلك ، وعاد هذا الملك الصليبي الحاقد على الإسلام محملا بما نهب من المسلمين .

وظل حكام المماليك في مصر يتحينون الفرصة للأخذ بالثأر والقضاء على خطر هذه الجزيرة ومعاقبة حكامها .

وفي عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥ ــ ٨٤١هـ) عقد هذا السلطان العزم على فتح هذه الجزيرة وأخذ يستعد لذلك بتجهيز المراكب

وتجميع العساكر، وأرسل لها ثلاث حملات متتاليات في ثلاث سنوات ابتداءً من سنة ٨٢٧هـ وكلُّها في شهر رمضان .

كان الحملتان الأوليان لغرض الاستكشاف، استطاع المسلمون من خلالهما التعرف على الجزيرة ومدى قوة حكامها، كما حققوا انتصارات عليهم وعادوا محملين بالغنائم والأسرى .

أما الحملة الثالثة : فكانت في شهر رمضان سنة ٨٢٩هـ وقادها أربعة من أمراء المماليك انطلقت في عدد كبير من المراكب نحو الجزيرة، تحمل أعدادًا عظيمة من المجاهدين، وقد تخلف عدد أكبر لم يجدوا ما يحملهم فحزنوا لذلك حزنًا شديداً .

يقول المؤرخ المعاصر لذلك الفتح ابن تغري بردي : «وعظم ازدحام الناس على كُتّاب المماليك ليكتبوهم في جملة المجاهدين في المراكب المعيَّنة، حتى أنه سافر في هذه الغزوة عددٌ من أعيان الفقهاء، ولما أن صار السلطان لا يُنعم لأحد بالتوجه بعد أن استكفت العساكر، سافر جماعة من غير إذن، وأعجبُ من هذا، أنه كان الرجل ينظر في وجه المسافر للجهاد يعرفه قبل أن يسأله لما بوجهه من السرور والبشر الظاهر بفرحه للسفر، وبعكس ذلك فيمن لم يعيَّن للجهاد، هذا مع كثرة من تعين للسفر من المماليك السلطانية وغيرهم، وما أرى هذا إلا أنّ الله تعالى قد شرح صدرهم للجهاد وحببهم في الغزو وقتال العدو ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ولم أنظر ذلك في غزوة من الغزوات قبلها ولا بعدها» .

وكان ليوم خروج المجاهدين نهارٌ يجل عن الوصف، اجتمع الناس لوداعهم وابتهلوا إلى الله تعالى أن ينصرهم، ووصلت السفن الإسلامية جزيرة قبرص، ونزل المجاهدون يفتحون المدن والقرى كل ذلك في شهر رمضان المبارك، وحلت الهزائم بالنصارى واستنجدوا بملوك أوربا فوصلت إليهم الإمدادات وتجمعت جيوشهم والتقى بها المسلمون في معركة حاسمة وكانت أعداد النصارى أضعاف عدد المسلمين، والمسلمون مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن

نصر الله الإسلام وأُسر ملك قبرص المدعو جانوس وركب المسلمون أقفية النصارى يقتلون ويأسرون حتى أن قتلى النصارى يجلون عن الحصر. وتم فتح العاصمة وتوالت الانتصارات وكمل فتح الجزيرة. ثم أقام المجاهدون وأراحوا أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وحمد الله على هذا الفتح العظيم الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وعاد المسلمون إلى مصر يحملون الأسرى وعلى رأسهم ملك قبرص وفرح المسلمون بذلك فرحًا عظيما، وحينما علم بذلك السلطان المملوكي بكى من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى، وانطلقت ألسن الشعراء تشيد بهذا الفتح العظيم يقول أحدهم:

بشراك يا مُلْكَ المليك الأشرفي   بفتوح قبرس بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا   لك أشرفٌ في أشرفٍ في أشرفِ
فتحٌ تفتحت السموات العلى   من أجله بالنصر واللطف الخفي
والله حفّ جنوده بملائك   عاداتها التأييد وهو بها حفي

وهكذا انتصر المسلمون في هذا الشهر العظيم بعد أن صدقوا في جهادهم واستعانوا بالله على أعدائهم فوفقهم ونصرهم رغم قلة عددهم وكثرة أعدائهم.

المصادر:

١ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٧.
٢ - المقريزي: السلوك جـ ٤ ق٢ ص ٦٩٤ وما بعدها.
٣ - ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٢ ص ١٠٠ وما بعدها.

فتح البوسنة والهرسك

سيكون الحديث عن منطقة من مناطق العالم الإسلامي تواجه أعظم هجمة صليبية في العصر الحديث، حيث يقضي على المسلمين بالقتل والأسر والتهجير، وحيث يموت الآلاف بأيدي الصليبيين أو نتيجة الجوع والعطش والمرض، حيث هم محاصرون منذ سنوات.

إنها منطقة البوسنة والهرسك، نعود إليها عبر سنين مضت لنعرف كيف وصلها الإسلام وانتشر فيها، وكيف انتصر المسلمون على النصارى الصرب في ذلك الوقت، وضموها إلى بلادهم.

في ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وازدهارها حينما اكتسحت أوربا الشرقية فتهاوت مدنها ودولها تحت ضربات الجيش العثماني المسلم، ووصلت طلائع هذا الجيش إلى مدينة فيينا لتحاصرها فترة من الزمن، ويتسابق ملوك أوربا بإعلان الولاء والانقياد للسلاطين العثمانيين، في ذلك التاريخ كان هَمُّ هؤلاء السلاطين الجهاد في سبيل الله ونشر كلمة التوحيد في كل مكان.

لنتوقف قليلاً في عهد السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان الغازي، فقد كان من السلاطين العظام الذين جاهدوا في سبيل الله ففتحوا المناطق الواسعة من أوربا.

ولد هذا السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة للهجرة، ونشأ على كريم الأخلاق، ولما شب اشترك مع والده في جهاد اليونان، فأظهر بسالة لا توصف وإقداما لفت الأنظار، وبعد وفاة والده تولى الحكم سنة إحدى وستين وسبعمائة هجرية فقضى كل سني حكمه في جهاد مستمر.

كانت أول أعماله الجهادية فتح مدينة «أدِرْنَه» فجعلها عاصمة لدولته وظلت كذلك حتى فتحت القسطنطينية، ثم ساق جيشه نحو البلقان فتبوأوا مدنها

وافتتحـوا حصونها ، وأبـرم معاهـدة مع ملك اليونـان ، بيد أن هـذه المعاهـدة لم تستمر طويـلاً ؛ حيث نقضها اليونان ، وهكذا استطـاع السلطان مراد الأول أن يستـولي على جـزء كبير من أوربـا الشرقيـة ، وأن يحيط بـالقسطنطينيـة من جميع الجهات .

وهنـا اضطرب ملـوك أوربـا النصـارى وارتعدت فـرائصهم ، وأدركـوا عظيم الخطر الذي تشكلـه هذه الدولة المسلمـة الفتية ، فطلبوا من البابـا «أوربانوس» الخامس أن يأمـر جميع الـدول النصرانية أن تتحـد للـوقوف في وجـه المسلمين ، وإخـراجهم من أوربـا قبل أن يجتـازوا حدود البلقـان وحينئـذ لا يستطيع أحـد الوقوف في وجههم فيكتسحوا أوربا كلَّها .

ولبَّى البابـا استغاثتهم وكتب لجميع ملوك أوربـا النصارى يأمـرهم بالتأهب لمحاربة المسلمين ، وأن يشنوا حربًا دينيـة للحفاظ على النصرانية في وجه الإسلام ولم ينتظر الملك أوروك الخامـس ملك الصرب وصول الإمدادات مـن أوربا ، بل استعـان بالـدول القـريبة منـه وكـوّن جيشا جـرارًا من اليـونان والصرب والمجـر والرومان ، وسار بهم إلى عاصمة العثمانيين أدِرْنة فحاصرها ، وكان السلطان مراد خارجهـا فعاد مسرعًـا بجيشه ، وهـاجم النصارى بغتـة حيث فوجئـوا بالتهليل والتكبير وسيوف المسلمين تعلـوهم فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى ولّوا الأدبـار تاركين الثرى مخضبا بدمائهم ، وهكذا فشلت محاولة الصرب هذه ضد المسلمين .

وكان من نتيجة هذه المعركة أن تسابق حكام البلقان لإعلان الولاء للمسلمين ودفع الجزية لهم .

وفي سنـة إحـدى وثمانين وسبعمائة تحالف ملك الصرب الجديـد «لازارجـر بلينانوفتش» مع ملك البلغار على مهـاجمة المسلمين ، لكنهما بعد عدة مناوشات تحققا من عجـزهما عن هزيمة العساكر الإسـلامية ، فأبرما صلحًـا مع السلطان مراد ، على أن يدفعا له خراجًا سنويًّا .

ولم يستمر هـذا الصلح طـويلاً فقـد نقضه النصـارى، وبدأوا يعـدُّون العدة لمحاربة المسلمين، إلا أن العثمانيين لم يمهلوهـم فاجتاحت جيوشهم بلاد البلغار وهزمت ملكها واحتلت مدُنها، وانتهى الأمر بأسر ملك البلغار.

ولما علم ملك الصرب لازار بذلك بدأ يستعـد لمواجهة المسلمين فألَّف جيشًا من الصرب والبوسنـة والهرسك والألبان والأفلاق والبُغدان وتعـاهد الجميع على محاربة المسلمين والاستيـلاء على الدولـة العثمانية، وبلغ الخبر مسـامع السلطان مراد فـألَّف مجلسا للشـورى والنظر في الأمر، لكـن ولده بـا يزيد هتـف قائلاً في المجلس: «الحرب الحرب والقتـال القتـــال» فأبطل كل مشـــورة، ودقَّت طبـول الحرب وسار الجيش الإسـلامي إلى الأعداء فـالتقاهم في سهل «قـوص أوه» سنة إحـــدى وتسعين وسبعمائة ونشـب القتـــال بين الجانبين ووثب المسلمـــون على النصارى والتحمـوا معهم في القتال التحـاما لم يعـد يرى معـه إلا جماجم طائرة وفرسان غائرة، ودويّ سلاح يـدك الجبال الشامخة، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مـدةً من الـزمن دافع الصليبيـون الصرب خـلالها دفـاعًـا مستميتًـا، وتنـاثـرت الرءوس، وأزهقت النفوس، وفي أثنـاء المعركة انحاز صهـر ملك الصرب بفرقته إلى المسلمين، ودارت الدائرة على الصربيين، وجرح ملكهم لازار، ثم وقع أسيرًا في يد المسلمين، وانتصر المسلمون على الصربيين وكانت من المعارك الحاسمة في تاريخ أوربا الشرقية، وظلَّ ذكرها شهيرًا في أوربا بأسرها، وزال استقلال الصرب وخضعت كل بلادها للمسلمين، كما فقدت البلغار استقلالها من قبل.

وبعـد المعـركـة أخـذ السلطـان مـراد يتمشى بين الجثث وينظـر إليهـا بعين الاندهـاش، إذ قام من بينهـا جندي صربي اسمـه «ميلوك كوبلـوفتش» فطعن السلطان بخنجر طعنة قاضية، وسقط ـ رحمه الله ـ ليسلم الروح بعد قليل.

وهكذا شهد سهل كوسوفـو بولجي معركة (قوص أوه) الحاسمة بين المسلمين والصرب، وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا، وأخـذ الإسلام ينتشر في تلك البقاع

حتى تحولت مناطق كاملة إلى الإسلام كما هو الحال في البوسنة والهرسك وكوسفو وغيرها .

وكما يشهد هذا السهل انتصار المسلمين ، فقد شهد أيضا غدر الصرب الذي ذهب ضحيته سلطان المسلمين مراد ، فمات أوائل شهـر رمضان من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة من الهجرة ـ رحمه الله ـ وسجل التـاريخ منذ ذلك الوقت وإلى يومنـا هذا أن الصرب لا يلتـزمون بعهد ولا ميثـاق ، ولا يعرفـون في تعاملهم مع المسلمين إلا لغة القوة والبطش وسفك الدماء .

واليـوم وكما غدر الصرب وأعـوانهم بقـائد المسلمين في تلك المعـركة يغـدرون بالمسلمين جميعًا في البوسنـة والهرسك ، فيقتلون ويأسرون ويغتصبون لا يردعهم خلق ولا دين ، ولا يرقبون في مـؤمن إلا ولا ذمة ، والعجب كل العجب أن يقف المسلمون جميعا موقف المتفرج على هذا كله .

فتح بلاد الصرب وعاصمتها بلغراد
سنة ٨٢٧ هـ

سنعـود إلى منطقة عـزيـزة علينا، أهلهـا إخـوة لنا، تـرتفع في مـدنها وقراهـا المساجد والمآذن، وقد كانت تتردد في جنبـاتها أصوات المؤذنين رافعة اسم الله عز وجل، منادية لأعظـم شعائر الإسلام، أما اليوم فقـد أُسكتت تلك الأصوات، وهدمت هاتيك المآذن، وقصفت تلك المساجد أمـا الإخوة فيها، فالبعض توفاه الله قتلا أو جوعا أو عطشا أو مـرضًا، أو تحت تعذيب أعداء الإسلام، والبعض يئن في معسكرات أُعدت لاعتقـال المسلمين، فلا ترى فيها إلا أشبـاحا وهياكل عظميـة تشهد على جـاهلية أوربـا، بل الغرب أجمع في القـرن العشرين، وقسم لاجئ، تشرد في بلاد الله الكـافرة يعـاني ما يعاني من غـربة وتنصير وجـوع. أما نساء المسلمين فلا تسـأل عن الاغتصاب والقهر والتعذيب. وأمـا الأطفال فقد تناثروا شرقًا وغربًا تتلقفهم أيدي النصارى واليهود ليُسلَخوا من دينهم الحنيف. هذه مأساة بل مآسٍ نسمعها في كـل يوم، ونبصرها في كل يوم فتتقطع لها قلوب المؤمنين ألما وحسرة.

أظنُّك أخي القارئ الكريم قـد عرفت هذه البلاد وعـرفت هؤلاء الإخوة. إنها بـلاد البوسنـة والهرسك، حيث تسيل دماء المسلمين، وتتنـاثر أشـلاؤهـم وتملأ الفضاءَ استغاثـاتُهم وأنينهـم وصريخ أطفالهم، وتأوهات مرضـاهـم. هذه صورة محزنة لإخـواننا المسلمين تـدمع العيون، بل تدمي القلـوب في عصر يزعمـون أنه عصر التقدم والحضارة، وعصر الحرية وحقوق الإنسـان ولكنها كلمات جوفاء، وعبـارات رنـانة، يهدهـد بها المسلمـون صبـاحا ومسـاء. وحتى لا أطيل حـزن القارئ الكريـم سأعود بـه سنوات وسنوات، يوم كان للإسـلام قوة تحميه، ويوم كان للمسلمين عز ومنعة.

نعود إلى عصر السلطـان العثماني مراد الثـاني الغازي ـــ رحمه الله ـ فقـد استمر

هذا السلطـان في جهاد الصرب على سنـة آبائه من قبلـه ، كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى .

بـدأ جهاده في شهـر رمضان سنـة خمس وعشرين وثمانمائة هجـرية بمهـاجمة القسطنطينية التي استعصت عليه فتركها متجها غـربا حتى وصل إلى بلاد المجر فجاهد ملكها وألـزمه بالتوقيع على معاهدة تقضي عليـه بالتخلي عن أملاكه على شاطئ نهر الـدانوب الأيمن بحيث يكون هذا النهـر فاصلاً بين الدولـة العثمانية والمجر.

ولما رأى أمير الصرب المدعو «جـورج برنكـوفيتش» أنـه لا يقوى على مقـاومة المسلمين قَبِلَ أن يدفع جزيـة سنوية قدرهـا خمسون ألف دوك ذهبي ، وأن يقدم للسلطان فرقة من جنوده وقـت الحرب ، وأن يزوجه ابنته ، وأن يتنازل للمسلمين عن بلـدة كروشيفـاتس وسط بلاد الصرب لتكـون حصناً منيعًـا تحتمي به القـوة الإسلامية المهيمنة على بلاد الصرب .

واستمـر هـذا الصلح حتى سنـة ثـلاث وأربعين وثمانمائة حيث عصى ملك الصرب ، فكانت عاقبة عصيانه إرسال جيش إسلامي فتح مدينة سمندرية التي تبعد عن بلغراد مسـافة خمسة وأربعين كيلاً ، ثم سار مراد بنفسـه فحاصر مدينة بلغراد ولكن ملك الصرب فرّ منها ، واستمر الحصار مدة ستة أشهر ، ولم يتمكن المسلمون من فتحها .

وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية توفي السلطان مراد وخلفه على الحكم في الدولة العثمانية ابنه السلطان محمد الفاتح ـ رحمه الله ـ فواصل الجهاد في سبيل الله ، وعلى الـرغم من أن فتحه القسطنطينيـة هو أعظم أعمالـه ، بل أعظم أعمال العثمانيين ، إلا أننا لن نتحدث عنه في هذا المقام .

اتجه محمـد الفـاتح بعـد إتمام الفتح إلى بلاد الصرب ، وفـرض عليهم جـزيـة سنوية مقدارها ثمانون ألف دوك ذهبي .

وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة عاد إليها مرة أخرى بجيش كثيف واخترقها من

جنوبها إلى شمالها دون أن يلقى أيّة معارضة، ووصل إلى بلغراد فحاصرها مرة أخرى، ولم يتمكن من فتحها.

وفي سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية حارب محمد الفاتح بلاد البوسنة لامتناع أميرها النصراني عن دفع الجزية فأسره هو وولده، ودانت له جميع بلاد البوسنة، وتدخل ملك المجر لأخذها من المسلمين فهزموه هزيمة شنيعة وقتل معظم جيشه، وكان من نتائج ذلك أن جعلت البوسنة ولاية من ولايات الدولة العثمانية. وأسلم أغلب أهلها وانضم ثلاثون ألفًا من شبابها إلى جيش الدولة العثمانية بعد إسلامهم وتوفي السلطان محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية بعد أن حقق للإسلام انتصارات عظيمة في أوربا، وانتشر الإسلام على يديه في مناطق شاسعة منها وانشغلت الدولة العثمانية فترة من الزمن بالحروب التي أثارها الصفويون الشيعة على حدودها الشرقية، وقد ثبت عن طريق الوثائق التاريخية أنَّ ذلك بتدبير من الأوروبيين النصارى لإشغال العثمانيين السنة وإيقاف زحفهم في أوربا فقام هذا التحالف بينهم وبين الصفويين.

على أن الأمور لم تدم لهم طويلاً إذ سرعان ما قهر العثمانيون الصفويين، ثم عادوا إلى الفتح ونشر الإسلام من جديد.

كان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني ـ رحمه الله ـ ففي شهر شعبان من سنة سبع وعشرين وثمانمئة هجرية أقدم ملك الصرب على قتل سفير المسلمين لديه فاستشاط السلطان لذلك غضبًا، وأمر بتجهيز الجيوش الإسلامية، وجمع كل ما يلزم من المؤونة والذخائر، وسار هو بنفسه لمحاربتهم، وأرسل فرقة من جيشه فتحت مدينة (شابتس) التي تقع شمال بلغراد، ثم سار بجيشه كله إلى بلغراد فحاصرها، ولم يدم الحصار طويلاً، إذ سرعان ما استسلم أهلها في الخامس والعشرين من رمضان، ودخلها السلطان فصلى في إحدى كنائسها صلاة الجمعة.

وصـارت هذه المدينـة التي كـانت أمنع حصن للنصارى ضـدَّ تقـدم الدولـة الإسلامية أكبر مساعد لهم على فتح ما وراء الدانوب .

وأعلن عن هذا الانتصار العظيم إلى جميع الولاة وملوك أوربا ، وعاد السلطان سليمان القانـوني إلى عاصمـة الدولـة الإسلاميـة إسلامبـول ، وأرسل إليـه الملوك والرؤساء يهنئونه بهذا الفتح العظيم .

وهكذا استطاع المسلمون إخضاع ما يعرف سابقا بيوغسلافيا ، وحاليًّا بصربيا وظلت تابعة لهم سنين عـديدة حكمها المسلمون بالعـدل والرحمة ، مما حبَّبهم إلى رعـاياهـا فاعتنق كثير منهم الإسـلام عن رغبة وبحـرية ، وظلـوا عليه إلى وقتنـا الحاضر، حيث يعمل النصـارى على قتلهم أو طـردهـم من تلك البـلاد مع أنها بلادهـم وديارهـم .

المصادر:

١ ـ أحمد يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ١٢٨٢هـ .

٢ ـ محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية : ط ٦ .

٣ ـ يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام الجابي ، دار البصائر.

جهاد المسلمين في الحبشة
سنة ٩٣٥ هـ

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون للإسلام في بقعة كانت ولا زالت موطنًا للجهاد في سبيل الله، وصلها الإسلام منذ وقت مبكر وظل ينتشر فيها وبين أبنائها حتى اعتنقه أكثرهم، فكان منهم الدعاة والمجاهدون الذين حملوا لواء هذا الدين ينشرونه ويدعون له بين بني قومهم.

إنها بلاد الحبشة، دار الهجرة الأولى، التي آوت المسلمين المهاجرين فترة من الزمن.

لقد انتشر الإسلام على يد هؤلاء المهاجرين، ثم توافد المسلمون إلى تلك البلاد من الحجاز واليمن، واستقروا فيها، وحملوا معهم الإسلام وتعاليمه، وأخذ ينتشر انتشارًا سلميًّا هادئًا، حتى إذا مضى قرن ونيف من الزمان تحول الساحل الحبشي إلى الإسلام وأصبح المسلمون هم سادته وحكامه.

ولم يتوقف المدُّ الإسلامي عند الساحل فقط، بل تعداه إلى الداخل في عمق الهضبة الحبشية، حيث أصبح سكان تلك المناطق من المسلمين، وتحولت قبائل كثيرة من الأحباش إلى الإسلام.

وبمرور الوقت اتضح الكيان السياسي للمسلمين في الحبشة وكونوا لهم سبع ممالك إسلامية، عرفت بممالك الطراز الإسلامي، وقد تولى حكام هذه الممالك الإسلامية عبء الجهاد في سبيل الله في الحبشة.

وإلى جانب هذه الممالك تقوم دولة نصرانية تتخذ من مدينة أكسوم عاصمة لها وهي الدولة التي استضاف واحد من حكامها الأوائل جموع المهاجرين المسلمين، إلا أن حكامها المتأخرين أظهروا العداوة للمسلمين وبدأوا يحاربونهم ويفتنونهم عن دينهم ويضيقون عليهم، وإذا كان المسلمون في أول الأمر قد كفوا عن مهاجمة الحبشة ولم يمدوا إليها موجة الجهاد الإسلامي، فإنهم اضطروا أخيرا

إلى إعلان الجهاد ومهاجمة الدولة النصرانية للدفاع عن دينهم وأنفسهم و إخوانهم المسلمين .

وتوالى عـدد من الحكام المسلمين المجاهـدين الذين قتل أغلبهم في سـاحات المعـارك مع النصـارى ، وكلما سقط واحـد منهـم رفع اللـواء آخـر، حتى آل إلى مجاهـد كبير وقائد عظيم من قـادة المسلمين الأحبـاش ذلك هو الإمـام أحمد بن إبراهيم القرين أو أحمدُ جران كما يسميه المسلمون هناك .

كان هذا الإمام ابنا لقس حبشي فاعتنق الإسلام وحسن إسلامه ، ووجد نفسه في دولة إسلامية ضعيفة ، يهيمن عليها النصارى ، ويأخذون من حكامها الجزية عكس ما يدعو إليه الإسـلام ، فلم يستسلم لذلك بل عمل على تقوية المسلمين وذلك بالدعوة إلى الجهاد و إثارته في النفوس .

واستطاع الإمام أحمد توحيد الدولـة الإسلامية في الحبشة ، وكان أول عمل قام به بعد ذلك هـو منع دفع الجزية للملوك النصارى ، وعنـدئذ أصبح قيام الحرب بينهم أمر لا مفـر منه ، وعنـدما تحركت جيـوش الحبشة النصرانيـة ، واجتاحت مملكة المسلمين تصدى لها الإمـام أحمد وهزمها شر هزيمـة ، وعندئد اشتعلت في نفوس المسلمين حماسة الجهادفي سبيل الله والتي كمنت في نفوسهم وقتا طويلاً .

واستطاع الإمام أحمد تنظيـم صفوف القبائل المسلمة في مهارة فـائقة ، وجعل منهم قـوة ضاربـة منيعـة ، وعنـدما تم لـه ذلك ، أعلن الجهـاد في سبيل الله ، وحاول البعض من المسلمين اليائسين تحذيـره من هذا الأمر، وأن مصيره سيكون مثل مصير الحكـام السابقين الـذين مـاتوا في سـاحـات المعارك ، ولكن الإمـام أجابهم بأن الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين .

وتوالت انتصارات المسلمين في الحبشة وتـوالى سقوط المدن النصرانية في أيدي المسلمين ، وسيطروا على وسط الحبشـة وجنوبها في مدة وجيـزة ، وأقبل الأحباش على الإسلام يعتنقونه بأعداد كبيرة ، حتى أن قائدًا من قادتهم قد دخل بجنده في الإسلام دفعة واحدة وكان عددهم عشرين ألفًا ، ويذكر أحد المؤرخين أنه لم يبق

على النصرانية أكثر من العُشر وهم الذين فضلوا دفع الجزية للمسلمين .

وحاول إمبراطور الحبشة جمع جيوشه المنهارة فاجتمع له عدد كبير سار بهم نحو المسلمين وعلم الإمام بذلك فسار بجيشه مسرعا والتقى العسكران الإسلامي والنصراني ، وبات المسلمون يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ، وقام الإمام أحمد في أصحابه وقال : توكلوا على الله واعتصموا به وأشيروا عليَّ : فقالوا : الجهاد بغيتنا ومُنانا ، ولا نزال نصبر لهم على الضرب والطعن حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، ففرح بقولهم وبات الجميع مستعدين للقتال ، وفي صباح يوم من أيام رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة من الهجرة بدأت المعركة بين المسلمين وأعدائهم ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا وصمدوا في وجه النصارى رغم قوتهم وكثرة عددهم ، وأنزل الله النصر عليهم ، فانهزم النصارى هزيمة قاسية ، وقتل أكثرهم وانفتح الطريق إلى عاصمتهم أكسوم فاستولى عليها المسلمون وقضوا على بقية دولتهم .

هذا هو الفتح العظيم الذي حصل للمسلمين في الحبشة على يد أحمد القرين ـ رحمه الله ـ والذي حول الحبشة كلها إلى الإسلام .

ولكنَّ القوى الصليبية في ذلك الوقت لم تكن لتسكت على انهيار دولة النصارى الوحيدة في العالم الإسلامي ، وكان الأحباش النصارى قد استنجدوا بالبرتغال وهم سادة البحار في ذلك الوقت ، فأنجدوهم بجيش قوي حديث مسلح بالمدافع ، التي لا يعرفها المسلمون الأحباش في ذلك التاريخ ، ودخلت القوات البرتغالية الحبشة ورحب بها النصارى وقاومها المسلمون ، وحدثت معارك عنيفة بين الصليبيين والمسلمين وصمد المسلمون أمامهم مدة من الزمن وكانت مدافع البرتغاليين تقصفهم بلا هوادة ولا رحمة ، واستنجد المسلمون بالعثمانيين وتأخرت النجدات ، وما وصل منها لم يكن ليغير ميزان القوى لضعفه وقلة تسليحه ، وحلت الهزيمة بالمسلمين وقتل قائدهم أحمد القرين ـ رحمه الله ـ وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة ، وعادت القوة للنصارى ، واتخذت

هجماتهم طابعًا من القوة والوحشية ، وخربـوا المساجد وأماكن العبادة وأفرطوا في القتل والتنكيل ، وأرغمـوا المسلمين على اعتنـاق النصرانيـة . وهكـذا أبلى هـذا القـائد المسلم بـلاءً حسنـا في الجهـاد ، وقـاد جيـوشـه في هضبـة الحبشـة ينشر الإسلام ، وكان أكثر معاركه في شهر رمضان .

وإلى جانب نجاحـه ـ رحمه الله ـ كقائد عسكري ، فقد كان نمـوذجا للحاكم المسلم ، يقيم الحدود ، ويـداوم على الفـرائض ، ويجلـس ويلطف بـالمسـاكين ، ويرحم الصغير ويوقر الكبير ، وينصر المظوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه ، ولا تأخذه في الله لومة لائم .

المصادر والمراجع :

١ ـ شهـاب الدين أحمد الجيزاني ، الشهير بعـرب فقيه : تحفـة الزمان أو فتـوح الحبشة ، نشره رينيه بـاسيه ، تحقيق فيهم محمد شلتوت ١٣٩٤هـ .

٢ ـ فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة ، القاهرة .

٣ ـ سير تـوماس . و. أرنـولد : الدعـوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبـراهيم حسن وآخرون ، مكتبـة النهضة القاهرة .

عوامل النصر

وهكذا وبعـد عرض هذه المعـارك والفتوحات المجيـدة التي يزخر بها تـاريخنا الإسلامي لنا أن نتساءل: ما الدروس والعبر التي استفدناها؟

لعل من أول هذه الدروس أننا نستطيع القول إن النصر كان قرين الجهاد، فما هزم المسلمون المجاهدون هزائم فاصلة، وما اندحروا أمام عدوٍ إلى الأبد، ولكنها صولات وجولات تنتهي بظفر المسلمين ونصرهـم.

وعلى هذا فإننـا نقرر ومن خـلال دروس التاريخ وعبره أن النصر دائما حليف المسلمين، ولا يتخلف أبدًا إلا إذا تغيرت أحوال المسلمين، فمتى انهزم المسلمون فليراجعوا أنفسهم، وليفتشوا عن عوامل الهزيمة فيهم.

ولقد أوضح القرآن الكريم عوامل النصر للمسلمين وطلب منهم تحقيقها قبل لقاء العدو، وأثناء اللقاء، ووضع الله سبحانه وتعالى دستورا للجيوش الإسلامية لو تمسكت به وسارت عليه ما هزمها عـدو، ولا قهرها قاهر، هذا الدستور يحدد شروط النصر وعوامله في آيات كريمات تضمنتها سورة الأنفال.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الـذين آمنوا إذا لقيتم فئـة فاثبتـوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسـوله ولا تنازعوا فتفشلـوا وتذهـب ريحكم واصبروا إن الله مع الصـابرين * ولا تكـونوا كـالذين خـرجوا من ديـارهم بطرًا ورئاء النـاس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾ الآيات [٤٥، ٤٧]

ثـم يقول عز وجل: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ الآية [٦٠] من السورة نفسها.

هذه عوامل النصر الحقيقية:

ـ الإيمان الصادق الخالص بالله سبحانه وتعالى، وما يستلزم ذلك من تكاليف وواجبات.

ـ الثبات عند لقاء العدو.

- الاتصال الدائم بالله سبحانه وتعالى بالذكر والدعاء .
- طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله ﷺ .
- الابتعاد عن النزاع والشقاق .
- الصبر على المحن والآلام .
- الحذر والبعد عن البطر والرئاء والبغي .

أما الإيمان فواضح من خطاب الله في الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فمتى آمن الناس بربهم وطبقوا هذا الإيمان في حياتهم وواقعهم قولاً وسلوكًا وأصبح ذلك هو المحرك المؤثر في كل مناحي الحياة ، وعملوا على تحقيقه في أنفسهم ولدى غيرهم بالدعوة والجهاد ، فقد بدأوا السير في طريق النصر، والتاريخ مليء بالأمثلة والنماذج بدءًا من سيرة المصطفى ﷺ ، وسيرة خلفائه من بعده ومرورًا بمعارك المسلمين وجهادهم عبر العصور، وانتهاء بعصرنا الحاضر.

وأما العامل الثاني : فهو الثبات أمام العدو، وأثبتُ الفريقين أغلبهما . والعدو يألم كما يألم المسلمون ، ويعاني أشدَّ مما يعانون ، ولكنه لا يرجو ما يرجون فإن المسلمين يرجون مدد الله وتثبيته للأقدام والقلوب ، وما الذي يجعل المسلمين لا يثبتون ، إنهم إن ثبتوا فهم واثقون من إحدى الحسنيين ، الشهادةِ أو النصرِ، بينما العدو لا يريد إلا الحياة الدنيا ، فهو حريص عليها لا أمل له فيما سواها .

أما ذكر الله كثيرًا عند اللقاء فهو السبب الذي يربط المؤمنين بالله عز وجل وهو التعليم المطرد الذي حكاه القرآن الكريم عن المؤمنين في موكب التاريخ : هؤلاء سحرة فرعون بعد إيمانهم يقولون ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين﴾ [١٢٦] الأعراف .

وهذه الفئة المؤمنة من بني إسرائيل وهي تواجه عدوًّا يفوقها عددًا تقول : ﴿ربَّنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين﴾ [٢٥٠] البقرة . وهذا رسول الله ﷺ وأصحابه يقولون بعد أحد : ﴿الذين قال لهم الناس

إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[١٧٣] آل عمران.

ولذكر الله في المعركة وظائف شتى: فهو الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والاتكال على من يملك النصر، وفي الوقت نفسه فذكر الله يجعل المؤمنين مستحضرين دائمًا حقيقة المعركة وأهدافها وبواعثها. فهي معركة لله، لتكون كلمته العليا لا للمغنم ولا للسيطرة ولا للاستعلاء القومي أو الوطني.

وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المسلمون المعركة مستسلمين لله، لأمره ونهيه، لا يراقبون قائدًا أو أميرًا وإنما يراقبون من لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

إن القائد البشري قد يغفل ويسهو، وربما تكون طاعته حاضرًا، فإذا غاب لم يلتزم بها من تحت يده، أما حين يكون الآمر هو الله سبحانه تعالى، فلا يسع فردًا مهما كان أن يستتر عنه فيفعل ما يشاء، ولذا كان قادة المسلمين قبيل المعارك يخاطبون جندهم ويقولون: «اليوم لا آمر ولا ناهي إلا الله فمن أراد أن يقاتل فليفعل وإلا فإن الله مطلع عليه» وكانت هذه الكلمات تزيد الجند حماسة وإقداما.

وأما العامل الآخر من عوامل النصر: فهو الاتحاد وعدم النزاع والشقاق، وهذا مبدأ إسلامي طالما دعا إليه القرآن الكريم، ووجه الرسول ﷺ أمته إليه فالنزاع والشقاق بداية الهزيمة وكسر الشوكة والخذلان والفشل.

والصبر عامل مهم من عوامل النصر، وصفة لا بدَّ منها لخوض أية معركة سواء كانت في ميدان القتال أو مع النفس، والصابر له ضمانٌ بالفوز والغلبة ذلك أن الله معه، ومن كان الله معه فلن يهزم، **﴿إن الله مع الصابرين﴾**.

أما آخر العوامل، وآخر التعليمات الإلهية للمسلمين: فهو عدم الخروج للقتال لأجل البطر أو الرئاء، أو الصد عن سبيل الله، فالهدف عظيم والغاية سامية: إنها خروج في سبيل الله، لإعلاء كلمته وتحقيق شرعه وإيصاله للعالمين. أما البطر والرئاء والصد فهي صفات المنهزم المغلوب.

ألم تخرج قريش يوم بدر لهذا الغرض؟ كما يقول أبـو جهل وقد طلب منه قومه العودة بعد نجاة العير:

«لا والله لا نرجع حتى نَـرِد بدرًا فنقيم ثلاثًا، ننحـر الجزور، ونُطْعَمُ الطعامَ، ونُسْقَى الخمر، وتعـزف القيان علينا، وتهابنـا العرب» وكـان عاقبة هـذا الهزيمة والذلَّ، لأن البغي والريـاء والصدَّ عن سبيل الله عاقبته معلـومة واضحة، وهي الخسران المبين.

ومهما كان هذا الاستعـداد المعنوي الإيماني فلا بدَّ أيضًـا من الاستعداد المادي المتمثل في القوة مهما كانت هذه القوة مختلفة باختلاف الأزمنة، إنه لا بد للإسلام من قوة مادية، فهي قرينة الجهاد. وقـد جاءت كلمة «قوة» في الآية نكرة لتلائم حال المخاطبين في كلِّ زمان. إنه لا بدَّ للمسلمين من الأخذ بأسباب القوة، ولن يستقيم أمر العالم وتستقر أوضاعه. والمسلمون ضعفاء، وإذا تحول هذا الضعف إلى قوة حينئـذ ستجد الاستقرار والأمن في كـل مكان. هذه سنـة الله عز وجلَّ، فقد وُجِدت أمة الإسلام لتقود وترشد ومكانها الحقيقي مقدمة الركب لا ساقته. هذه عوامل النصر كما أوضحها كتاب الله عـز وجل، ووالله لو حققها المسلمون في عصرنا هذا لما حلَّ بهم ما حلَّ من هزائم مـروعة. والتاريخ خير شاهد على ما نقول.

المصادر:

١ ـ ابن كثير: التفسير، سورة الأنفال.

٢ ـ سيد قطب. في ظلال القرآن، سورة الأنفال.



فهرس الموضوعات











97
7

ردمك ٩٩٦٠-٢٠-٠٥٢-٣